رواية

الشلال

أحمد دعدوش

السبيل

رواية
الشلال

أحمد دعدوش

السبيل

2024

تأليف: أحمد دعدوش

رسوم: عمر إسماعيل

القياس: 21.5×15.5

عدد الصفحات 191 ص

ISBN numaranız:
'978-625-95018-5-7'

الطبعة الأولى

1446هـ-2024 م

جميع الحقوق محفوظة

السبيل

من إصدارات مشروع السبيل

www.al-sabeel.net

بالاشتراك مع

مؤسسة قطر الندى لنشر الثقافة والإعلام

+212667893030

QATRUNNADA_MA

QATRUNNADA.MA

FONDATIONQATRUNNADA@GMAIL.COM

إحدى مؤسسات

الفصل الأول

مع اقتراب قرص الشمس من المغيب في يوم صيفي من ليالي شهر يوليو في عام ٢٠٢٣، وفي حيّ سكني بشرق مدينة تورونتو، أطل شاب ثلاثيني نحيل من نافذة مفتوحة في الطابق الأخير من مبنى متواضع.

كان همام معتادًا على تأمل مشهد غروب الشمس وراء ناطحات السحاب، ثم يقتنص هذه اللحظة المميزة لأداء أحد طقوسه المفضّلة.

ملأ همام صدره المتعَب بالهواء، وأخذته نوبة سعال. فكّر مجددًا في ضرورة ابتعاده عن الشوارع المزدحمة بالسيارات وأجوائها الملوثة. أغلق بإحكام نافذة غرفته المتواضعة ليحظى ببعض الهدوء، وملامحه تنضح بالضجر.

مشى متثاقلًا بضع خطوات. أطفأ نور الغرفة. أشعل عود بخور صيني، ونصبه في صحن رملي على طاولة صغيرة.

رمى جسده المنهك على أريكته، وأسند رأسه للخلف مستقبلًا مغرب الشمس. أغمض عينيه، وأرخى كل عضلات جسمه.

ثلاث شهقات طويلات، تتبعهن خمس ثوان من حبس النفَس، ثم ثلاث زفرات أطول، هكذا تعلّم في دورات التأمل والمعابد، ثم أسلم عقله لجولة تأمل عميق.

أصبح همام خبيرًا بعد سنوات طويلة من التعلم والممارسة، وما هي إلا بضع دقائق حتى ينغمس في عالمه الموازي.

الجسد ملقىً بآلامه وأثقاله على أريكة بسيطة في غرفة شاب وحيد، أما الروح فتحلّق في عالم آخر، حيث يبدو أقرب إلى صورة سوريالية للجنّة.

في العالم الآخر، يبدو كل شيء مختلفًا ومنفتحًا على احتمالات لا نهائية، حيث لا تعمل قوانين الفيزياء والجاذبية بالضرورة، ويصبح العقل سيد الموقف وصانع الواقع، فكلما اشتهى شيئًا تحقق.

أصبح همام مدمنًا على ممارسة التأمل، تارة للاستنارة والارتقاء، وتارة أخرى طلبًا للعلاج والاستشفاء، وأحيانًا لمحض الترفيه والتسلية وإشباع الفضول. وكثيرًا ما يتلقى مفاجآت سارّة، فتزيده إدمانًا وإمعانًا في طلب المزيد.

في هذه الليلة، رأى همام نفسه يطير على ارتفاع منخفض. كان ينساب ببطء كنسيم هادئ بين أشجار باسقة وزاهية الألوان. يجري من تحته ماء نهرٍ زلال كالبلّور، وفي الأفق شلال عظيم يتساقط من أعالي السماء بنعومة، وماؤه الأبيض يتلألأ في ضوء الشمس قبل أن يصب في النهر، مشكّلًا لوحة حالمة تخلب الألباب.

كان عالمًا ساحرًا يفوق الخيال، لم يسبق لهمام أن رآه بمثل هذه الروعة. انسابت جرعة من هرمون السعادة في شراييه، وغمرت قلبه نشوة عارمة، واجتاحت جلده موجة قشعريرة لذيذة وهو يفكر في احتمال فوزه بلحظة استنارة لم يذقها من قبل.

واصل همام الانسياب في الهواء، وكان يحلّق تلقائيًا فوق النهر وبعكس اتجاه جريان الماء، والأشجار تتمايل عن جانبيه وكأنها مخلوقة من ريش ورديّ ناعم.

اكتشف أنه لم يكن وحيدًا، فثمة كائنات لطيفة تشاركه هذا الجمال. على طرف النهر، كان هناك حصان وحيد القرن (Unicorn) بألوان الطيف الزاهية يشرب من ماء النهر، وما إن مرّ بجانبه حتى ابتسم له، ردّ همام التحية بابتسامة، وقبل أن يلتفت للأمام أحاطت به خمس عرائس صغيرة (Fairies) ترفرف بأجنحتها كاليعاسيب، كانت على هيئة فتيات حسناوات في

غاية الرقة والأنوثة، ولها أصوات طفولية ساحرة. بادلها همام التحية، ثم طبعت إحداهن قبلةً على وجنته قبل أن تحلّق بعيدًا. لم يجد همام طريقة للتعبير عن امتنانه، وفوجي بصوت أجشّ يناديه باسمه، التفت ليرى تسعة أقزام ظرفاء بقبعات حُمر ولحىً بيضاء يلوّحون له ويهتفون باسمه، بادلهم التحية ضاحكًا من شقاوتهم الطفولية، وواصل انسيابه فوق النهر ليرى جوقة من الأطفال الإلف (Elves) بملابس خضراء براقة، وكانوا مفعمين بالنشاط والحيوية، وما إن مرّ من فوقهم حتى تقافزوا وتسابقوا للتلويح له والترحيب بقدومه. وبعد أمتار قليلة، تناهى إلى أذنيه لحن لم يسمع أعذب منه، وإذ بجوقة من الشباب والفتيات في غاية الجمال، تعزف إحداهن بنعومة على أوتار قيثارة مذهّبة، ويؤدي البقية رقصة بديعة بهدوء وانسجام، ويرتدون جميعًا عباءات إغريقية من الحرير الأبيض، وتزيدهم أكاليل ورق الغار حُسنًا وفتنة.

أوشك هذا الجمال أن يأسر عقل همام، حتى كاد ينسى ما أتى لأجله، لكن تمثال شيفا[1] العملاق سرعان ما أطلّ بقامته المهيبة على حافة النهر. بدا شيفا على هيئته التي اعتاد همام على رؤيتها في المعابد الهندوسية التي زارها مرارًا، بشرته زرقاء شاحبة، وهو عاري الصدر ويرتدي مئزرًا بسيطًا. يلتفّ حول رقبته ثعبان كوبرا ضخم، ويمسك بيده رمحًا ثلاثي الشُعَب، بينما ينفتح كفّ يده الأخرى في اتجاه الأمام وكأنه يلقي التحية على من يقابله. اقترب منه بخشية وخشوع، مستحضرًا أساطير شيفا الذي جلب الموت والدمار لأعدائه، فوقف أمامه باحترام، وانحنى مقدمًا التحية. أومأ التمثال بعينيه الباردتين مباركًا، وقدّم همام الامتنان، ثم تابع انسيابه في الهواء.

(١) شيفا هو أحد عناصر الثالوث المقدس لدى الهندوس، وهو عندهم إله اليوغا، ويجمع بين صفات الخير والعنف في الأساطير.

مع اقتراب همام من مصبّ الشلال، ظهر له أخيرًا «الصّديق الصّدوق»، و«المعلّم الموثوق»، إنه «السيد الحكيم»، و«الروح الحارسة» التي يستمدّ منها همام النور والحكمة والحماية في حياته اليومية.

رجل عملاق فارع الطول، لحيته بيضاء طويلة، وعباءته ناصعة البياض. تغطي رأسه دائمًا قبعة مدببة بيضاء، ويسند يده إلى عصا خشبية ضخمة كجذع شجرة عتيقة. تخطّ وجهه الشاحب تجاعيد تحكي حكمةً راكمتها أجيال طويلة، وتتميز عيناه بنظرات حادة تملأ القلوب رهبة. سبق أن ظهر لهمام في تأملاته الأولى قبل بضع سنوات، وما زال يلازمه كلما اقتحم عالم الأرواح.

أخبره الحكيم في بداية التعارف أنه يعيش في عالم فالهالا[1] منذ أكثر من قرنين، وكان قبلها قد تناسخ في سلسلة حيوات وعاش في أجساد رجال عظام. فكانت روحه في جسد محارب مقدام في جيش الإسكندر المقدوني قبل أن يُقتل مقبلًا غير مدبر على أرض بابل، ثم حلّت في جسد أمير فارسي، ثم في جسد شاعر عربي رفيع المقام، وبعدها عادت الروح لتحلّ في جسد أحد نبلاء إنجلترا الكبار، ثم فعلت قوانين الكارما[2] فعلتها ودفعت تلك الروح لتولد في جسد أحد قادة الثورة الفرنسية، وهكذا ظلت تتناسخ في صور نبيلة حتى اكتملت استنارتها وصعدت إلى عالم الخلود، واختارت التجلي لهمام في هيئة شيخ مهيب كي تنقل له خلاصة الحكمة، وتساعده على الارتقاء إلى جنة الأرواح المستنيرة الخالدة.

(١)عالم أسطوري يشبه الجنة في الأساطير الإسكندنافية، يعتقدون أن الأرواح الخالدة تعيش فيه.

(٢)يؤمن الهندوس وغيرهم من أصحاب العقائد الباطنية بأن الكون محكوم بعدة قوانين، ومنها قانون الكارما الذي يحدد مصير الناس والمخلوقات بناءً على أفعالهم.

اقترب همام من معلّمه بكل هدوء واحترام، ولفت نظره تجمُّع رجال على هيئة «الهنود الحمر»[1] من حوله، تزيّن رؤوسهم تيجان من ريش النسور، ويقرع أحدهم على طبل من الجلد، بينما يرقص البقية «رقصة الأشباح»[2].

أدى همام التحية، وانحنى بإجلال، ردّ الحكيم:

- أهلًا همام.. طال غيابك يا بني!

وضع همام يده على صدره، ورفع رأسه قائلًا:

- كنتُ مريضًا.. كما تعلم يا سيدي.

- الروح لا تمرض يا همام.

أعاد همام النظر إلى الرجال الراقصين مع تعالي أصواتهم، وقال متململًا:

- لقد تعبْت!

لم يجرؤ همام على المبالغة في الشكوى بين يدي معلّمه الوقور، لكن ملامح وجهه وهزال جسده تغني عن البوح، فردّ عليه الحكيم بصوته الحنون:

- من يلتزم هذا الطريق لن يمرض، ولن يتعب.

- ما زلتُ أبذل كل جهدي.

هز الحكيم رأسه، وقال مع ابتسامة خفيفة:

(١)كان هذا المصطلح يطلق قديمًا على الشعوب التي استوطنت القارتين الأمريكيتين قبل وصول الأوروبيين في أواخر القرن الخامس عشر، وما زال متداولا لدينا باللغة العربية، لكنه لم يعد مستخدمًا في الغرب لدلالته العنصرية، ويقال بدلا عنه السكان الأصليون أو الأمريكيون الأصليون أو الشعوب الأولى.

(٢) هي من أهم الطقوس الاحتفالية الدينية التي تمارسها بعض قبائل الأمريكيين الأصليين منذ قرون طويلة.

- وما زال الطريق طويلًا. هذه الحكمة التي راكمها أسيادنا المبجَّلون على مر القرون، لن تكشف لك بعضَ أسرارها حتى تبذُل لها كلَّ كيانك.

صمت همام قليلًا، ليتفكّر فيما سمع. في العادة كان يتردّد في النظر إلى عيني الحكيم، ويجد فيهما خليطًا من نور الحكمة وبثّ الرهبة، لكنه استجمع قواه هذه المرة، فنظر فيهما وسأل:

- هل ستجود عليّ اليوم بأسرارٍ جديدة؟

ابتسم الحكيم، وقال:

- ليس اليوم يا همام.. لستَ مستعدًا بعد.

أخفض همام رأسه وامتعض بصمت، علّق الحكيم مع ابتسامة:

- أرأيت؟ ما زلتَ متعجّلًا!

هز همام رأسه موافقًا مستسلمًا.

بسط الحكيم يده في إيماءة توحي بالترحيب، وتابع:

- سلّم روحك يا همام.. الكارما ستقودك إلى ما تريد.

نظر همام إلى الشلال، وأكمل الحكيم مشيرًا بانحناءة رأسه:

- هيا.. الشلال بانتظارك.

حيّا همامُ الحكيمَ بعينيه مع انحناءة خفيفة، وطار بخفّة نحو الشلال، استدار عند مصبّه مستقبلًا النهر بوجهه، فتح ذراعيه ببطء، أغمض عينيه، ورفع رأسه ليتلقى مسقط الشلال الناعم على وجهه، والحكيم يراقب بصمت مع ابتسامة رضى عريضة.

تعالى هدير الشلال في أذني همام، وكان يتناغم بالتدريج حتى صار أقرب إلى لحن موسيقي جميل. فتح همام عينيه ببطء، ورأى صعوده البطيء في سيل من الضوء، وتموجاته تميل من اللون الأبيض إلى الذهبي اللامع.

نظر همام إلى يديه، وأدهشه تعلّق حبيبات من الذهب عليها من أطراف الأصابع وحتى ذراعيه، وما هي إلا دقائق حتى تلألأ جسمه كله، وكأنه سبيكة من الذهب الخالص.

ابتسم الحكيم بهدوء، وخاطب همام بالتخاطر من غير أن ينطق:

- اشحن كل شاكراتك بالطاقة.. ستتعافى قريبًا يا همام.

شعر همام بمشاعر الانتشاء وهي تغمر كيانه كله، وأسلم نفسه للشلال الذي يخترقه من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه. استمر في الصعود وسط تيار الضوء الذهبي بموازاة جرف صخري، حتى ظهر عن يمينه كهف كبير، التفت إليه بعيونه المسترخية، فرأى تنّينًا ينظر إليه بعينين طفوليتين. وبالرغم من ضخامته فقد بدا له أليفًا بألوانه الزاهية، وكأنه شخصية من فيلم خيالي للأطفال. سمع همام صوتًا عن شماله، فالتفت ليكتشف أيضًا كهفًا آخر، وفيه طائر العنقاء، وكان ينظر إليه بعينين في غاية البراءة، وريشه على هيئة لهب أحمر يتراقص بنعومة.

نظر همام إلى الحكيم نظرة تساؤل، فأجابه الحكيم بالتخاطر:

- اختر أحدهما يا بني، وسيكون لك نِعم الخادم والصديق.

أعاد همام النظر إليهما، وتعجّب من وداعتهما، وكان كلاهما يخفض له جناحيه مرحّبًا كجروٍ صغير. مال قلب همام نحو التنين لاشعوريًا، واقترب منه بهدوء ومسح رأسه، فابتسم له بامتنان. نخّ التنين مستسلمًا لقائده الجديد،

فامتطى همام ظهره بحذر، وربّت على رقبته الملساء. قام التنين مستعرضًا قوته، وكأنه انتقل في لحظة من حيوان أليف إلى وحش كاسر. نشر جناحيه الكبيرين كما تفعل النسور، وأطلق صيحة ملأت قلب همام بالعنفوان، وانطلق كسهمٍ يشق كبد السماء.

رفع الحكيم عصاه ملوّحًا، وخاطب همام مجددًا بالتخاطر:

- أحسنت الاختيار يا بني.

استعرض التنين مهاراته في التحليق عاليًا ثم الانقضاض في مسارات متعرجة بين الأشجار، وهمام يربّت على رقبته مشجعًا ويطلق صيحات الحماس. ربما لم يجرّب مثل هذه اللحظات المفعمة بمشاعر الحرية والقوة والانطلاق، حتى أنسته كل ما يعانيه من ضعف وتعب.

كانت كل الكائنات الجميلة تلوّح لهمام وتبادله التحية، وأطفال الإلف يركضون على طول النهر ليهتفوا باسمه، بينما تهديه جوقة الشباب والفتيات بالعباءات الإغريقية أغنية ترحيبية. شعر همام للحظة ببلوغ ذروة السعادة المطلقة، وكاد يقتنع بأنه ملك الملوك المتوّج على عرش العالم.

فتح همام عينيه المنهكتين ببطء، سعل بحدّة، نظر إلى الغرفة من حوله. استغرق بعض الوقت حتى يستعيد وعيه بالواقع، شعر بشيء من الإحباط، وهمس لنفسه:

- تبًّا، ليتني أبقى في عالم الشلال إلى الأبد!

لم يرغب في مفارقة شعور السعادة الذي كان منغمسًا فيه للتو، ظل مسترخيًا في نفس وضعيته، مغمضًا عينيه، واسترجع تفاصيل التجربة الاستثنائية التي حظي بها. كان قد مرّ بعدد لا يحصى من التجارب طوال سنوات، لكنه فوجئ اليوم بتجربة نموذجية. لم يسبق له أن رأى كل تلك الكائنات الروحية الجميلة مرة واحدة، ولم ينل كل ذاك الترحيب والاحتفاء كما ناله اليوم، ولم يكافئه الحكيم بصديق رائع كالتنين من قبل، فتفاءل بتحصيل المزيد من الحكمة والمعرفة التي دأب على طلبها من الحكيم، وببلوغ أقصى درجات الاستنارة التي يحلم بها كل من يسلك هذا الطريق.

مرّت ربع ساعة من الاسترخاء اللذيذ، ثم قام همام من أريكته متثاقلًا، ونوبة سعال متقطع تزيده إعياءً. وبعدما استعاد وعيه من عالم الشلال الحالم، لم يستطع منع خواطر اليأس والعدمية من التداعي إلى ذهنه، وكأن صوتًا داخليًا يناديه: إلى متى ستبقى روحي حبيسة هذا العالم المادّي البائس؟!

مشى متثاقلًا باتجاه النافذة، ووقف ليراقب حركة السيارات الرتيبة، وبدتْ له كأشباح معدنية تتحرك بلا روح. التفت إلى المارة وهم يسيرون على عجل، وشعر لوهلة أنهم روبوتات لا روح فيها أيضًا، ثم تأمّل قليلًا أحد المشردين وهو ملقىً على الرصيف بغير حراك تحت تأثير المخدرات، ولا يأبه به أحد.

التفت همام إلى مكتبته، ووقف أمامها دقيقة ليتأمل في عناوين الكتب: «أسرار أتلانتس»، «الشاكرات السبعة»، «سحر الكونداليني»، «أصول الخيمياء»، «العقيدة السرية»، «مفتاح الثيوصوفيا»، «كشف أسرار إيزيس»، و«التعاليم السرية لكل العصور»...

همس لنفسه بشيء من السخرية:

«أكثر من عشر سنوات من القراءة والتعلم، والتأمل، والتبتّل، والتنسّك...».

تنهّد بصعوبة، وتابع التفكير:

«وما زلتُ في بداية الطريق!».

أعاد النظر من النافذة إلى حركة الشارع، وما زال يحدث نفسه:

«ما فائدة هذه الحكمة إن كانت أهم أسرارها ستبقى محجوبة عن معظم الناس؟ حتى الذي يضحّي من أجلها لن يكتشفها إلا بعد عمر طويل!».

فتح النافذة، وملأ رئتيه بالهواء، أخذته نوبة سعال جديدة، ثم فكّر:

«إلى متى سأظل أستجدي الحكمة من الحكيم؟.. إلى متى؟!».

في صباح اليوم التالي، ارتفعت الشمس في سماء تورونتو، وتسلّل خيط من أشعتها عبر ثغرة في ستارة غرفة همام، فسقط على عينه وهو غارق في نوم عميق.

فتح همام عينيه منزعجًا، أخذه السعال قبل أن ينظر في الساعة، انتفض عندما وجدها قد تجاوزت الثامنة بقليل. نهض غاضبًا مذعورًا، لكن الإعياء كان يقيّد سرعته. ارتدى ملابسه على عجل، وانطلق متذمّرًا باتجاه محطة قطار الأنفاق.

في صالة مكاتب مفتوحة، كانت زميلته أوليفيا تعمل على حاسبها المحمول، ثم

همست لها زميلة شقراء بجوارها:

- وصل حبيبك غريب الأطوار!

قعد همام بهدوء على مكتبه المقابل لهما، من غير أن يكلّم أحدًا. بادرته أوليفيا بالتحية وهي ترفع حاجبيها معاتبة:

- صباح الخير!

ردّ مرتبكًا مع ابتسامة:

- عفوًا.. صباح الخير.

باغته زميل آخر على عجل:

- همام، السيد رولاندز ينتظرك في مكتبه.

تأفّف همام، وقام متجهًا نحو مكتب المدير.

أتبعته الزميلة الشقراء بنظرة من طرف عينيها، ثم همست لأوليفيا بخبث:

- هذه آخر مرة أنصحك، انسيه، تستحقين رجلًا أفضل!

لم تُخفِ أوليفيا شعورها بالحزن والإحباط، واكتفت بالصمت.

دخل همام مكتب المدير رولاندز، فبادره المدير بأسلوبه المباشر:

- سيد همام، اعذرني على صراحتي لكن لا بد أنك ستتفهم. أنت لست ذكيًا وموهوبًا فقط، أنت عبقري. ونحن حرصنا على توظيفك والتمسّك بك منذ البداية، لكن العمل لا يمكن أن يستمر بهذا التسيّب والإهمال!

لم تغادر اللامبالاة ملامح همام، واكتفى بالقول ببرود:

- التأخر ليس دليلًا على الإهمال سيد رولاندز!

- أنت تعلم أني لا أتحدث عن التأخر فقط.. لم تعد تعمل بنفس الحماس، تبدو مشتت الذهن معظم الوقت، لا أدري إن كنتَ تتعرّض لبعض الصعوبات، ولا شك في أني متعاطف معك، ولكن لا ينبغي لهذا أن يؤثر على إنتاجك، ولا أن يعطل نجاحك المهني.

كان همام يتأمل وجه المدير المنفعل وحركات يديه، وكاد ينفصل عن الواقع وهو يغوص في عمق المشهد. لم يستوعب الكثير مما سمعه، وظل شارد الذهن بضع ثوان. انفعل المدير مجددًا من جمود همام وذهوله، ورفع صوته بحزم:

- سيد همام!

- نعم.. نعم!

احمرّ وجه المدير، ونظر إليه بحدّة وهو يكظم غيظه:

- هل تسخر مني سيد همام؟!

ظل همام محافظًا على هدوئه، وهز رأسه نافيًا، أعاد المدير السؤال مستفسرًا عن سبب لامبالاته. قرّر همام فجأة أن يحسم الأمر وبدون تفكير:

- لا تقلق سيد رولاندز، لن أطلب فرصة أخرى هذه المرة.

صُدم المدير، وسأل:

- عفوًا! ماذا تقصد؟

رفع كتفيه وأجاب ببرود:

- ببساطة، أنا مستقيل.

عقدت الدهشة لسان المدير، فلم ينبس ببنت شفة، واستأذن همام بالانصراف وخرج ليجمع أغراض مكتبه في صندوق صغير. كان الصمت يخيّم على المكان، والزملاء يراقبون المشهد باندهاش.

قطعت أوليفيا الصمت لتنادي همام بصوت خافت يملؤه القلق، سألته ما الذي يفعله، فلم يجبها، وأكمل ترتيب أغراضه بهدوء. ألحّت عليه والحزن يعتصر قلبها، فالتفت إليها واقترب منها، انحنى نحوها وهي جالسة على مقعدها، نظر في عينيها بحنان، وهمس:

- أوليفيا، أنت فتاة طيبة جدًا، وأنا شاب تائه!

لم تستطع أوليفيا الرد، وقال قبل أن تنحدر دمعتها:

- افهميني أرجوك، لا أريد لك أن تتوهي معي!

أجهشت أوليفيا بالبكاء، ومسح همام على رأسها مودّعًا. حاول إظهار بعض المشاعر جبرًا لخاطرها، لكن البرودة كانت تغلب على ملامحه. حمل الصندوق، ونظر إلى زملائه، بادلهم نظرات التعاطف بصمت، وشكرهم جميعًا على محبتهم، ثم غادر بهدوء.

في رحلة عودته من العمل، والتي ستكون الأخيرة، ألقى همام جسده المتعب على أقرب مقعد في قطار الأنفاق، وانغمس في سيل خواطره. استرجع كل ما قرأه من كتب ومقالات ثورية، عن استعباد الرأسمالية للطبقة الكادحة، وعن استهلاك منظومة السلطة لطاقة الشعب بدفعهم للانخراط في وظائف محددة.

شعور غامض بنشوة الانتصار ينعش فؤاده، ويدفعه للاستغراق في التفكير:

«طريق الحكمة يتطلّب قرارات شجاعة، والسّالك لا يضيع وقته في صحبة الحمقى!».

نظر إلى الركّاب من حوله، ولم يرَ سوى موظّفين منغمسين في عوالمهم المنفصلة. بعضهم يعوّض نقص النوم بغفوة سريعة، والبعض الآخر يستغل وقته في قراءة رواية أو تصفح هاتفه، وآخرون يتأملون في معالم المدينة المألوفة قبل أن يغوص القطار في نفق تحت الأرض.

غادر همام محطة القطار وتابع سيره حاملا الصندوق، نظر مجددًا إلى أغراضه مستمتعًا بلحظة الخلاص، مرّت بجانبه فتاة حسناء، ومع تلاقي العيون منحتْه ابتسامة المجاملة التي تواطأ عليها أهل البلد، وما زالت الأفكار تتداعى إلى رأسه:

«من يسعى للحكمة الأبدية لن يستنزف طاقته في عبودية الوظيفة، ولا عبودية الزواج!».

مرّ كعادته بساحة دنداس (Dundas Square) الصاخبة، حيث ينصُب أحد فناني الشوارع مكبر الصوت أمام غيتاره ليعزف ويغني طمعًا ببعض المال، بينما يحاول موهوب آخر جذب الأنظار ببعض حيل السّحر المزيف. والمشهد لا يكتمل بدون حفنة من المشرّدين المفارقين لهذا العالم، فتأثير المخدّرات يكاد يستهلك وقتهم كله.

خطفت لوحات الإعلان العملاقة نظرة عابرة من عين همام، وطبعت في لاوعيه رسالة استهلاك جديدة، وهو ما زال يقلّب الأفكار في وعيه الحاضر:

«كم سنة ضاعت من عمري في الدراسة؟ من المدرسة، إلى الكلية، ثم الجامعة؟

كم سنة احتجت لاكتساب الخبرة المهنية؟!».

ومض إعلانٌ مبهر على لوحة ضوئية ضخمة، مبشّرًا بموعد إطلاق آخر إصدار لهاتف ذكي مشهور. نظر همام للوحة مواصلًا التفكير:

«ثم كم سنة ضاعت مني في تلك الوظيفة اللعينة؟».

تابع التفكير بسخرية مشحونة بالغضب:

«الآلاف يحسدونني!.. هه.. يا للسخرية!.. مهندس برمجيات!».

لمح همام شابًا مشرّدًا بملابس قذرة، مسندًا ظهره إلى جدار محلّ أزياء فخم، ويمدّ ساقيه على الرصيف. وعندما تلاقت العيون، رفع الشاب يده حاملًا كأس قهوة ورقي فارغ طلبًا لدولار معدني، لاحظ همام التسلّخات في ذراع الشاب من إدمان المخدرات، وتابع طريقه غير مبالٍ، وما زال يقلّب الخواطر في رأسه:

- من هو الأحمق الذي قال إن التكنولوجيا ستجعل العالم أفضل؟!.. ها هو العالم يزداد استهلاكًا، وانحطاطًا!

مرّت ثلاثة أيام، استمتع فيها همام بنوم عميق حتى الظهيرة. كان يتناول إفطارًا خفيفًا، ثم يمشي ساعات طوال في شوارع وسط المدينة، يراقب الموظفين والعمّال والطلاب وهم يمشون سريعًا للحاق بأعمالهم، أو عائدون منها بإنهاك وملل. ويلمح أحيانًا سيارات فارهة تتوقف أمام أرقى المطاعم والمتاجر، ويترجّل منها رجال ونساء من عالم آخر.

وفي آخر الجولة، يقعد على مقعده المفضل في حديقة مجاورة، ويراقب المشرّدين العاطلين عن العمل، من لحظة استيقاظهم المتأخر من النوم على صفائح من الكرتون، وإلى حين انغماسهم في جولة انتشاء جديدة بالمخدّرات.

بدا المشهد مثيرًا للسخرية في عيون همام، ففريق يعمل بكدّ واجتهاد، ثم يدفع في آخر الشهر ربع أو ثلث دخله لمصلحة الضرائب، وفريق آخر لا يكاد يعمل ولا يدفع، ويعيش مرفهًا ومسيطرًا، وفريق ثالث لا يعرف معنى العمل ولا الرفاه، ويتلقى من الفريقين ثمن بقائه غائبًا عن الوعي معظم حياته، إلى أن يلقى حتفه بجرعة زائدة!

في ليلة عطلة الأسبوع، قعد همام على طاولة صغيرة في مقهى مجاور، وما هي إلا دقائق حتى وصل صديقه كيتشي Kitchi. كان شابًا في مثل سنّه بمنتصف الثلاثينات، جسيمًا فارع الطول أسمر البشرة، يسدل شعره الطويل على الجانبين، وملامح أصوله من السكان الأصليين لا تخطئها عين.

تصافح الصديقان وتعانقا بحرارة، فقد مرّت عدة سنوات على آخر لقاء. وبعدما طلبا كوبَي قهوة، وتبادلا السؤال عن آخر المستجدات، قال همام:

- بالمناسبة، منذ كنا زملاء في الجامعة وأنا أتساءل عن معنى اسمك النادر، ربما منعني الحياء من سؤالك!

ضحك كيتشي، وسأل مداعبًا:

- والآن ذهب الحياء؟

أجاب همام مع ابتسامة:

- ربما نتخلى عنه تدريجيًا كلما كبرنا.

شرح كيتشي لصديقه أن معظم السكان الأصليين يتخذون أسماء غربية كي يندمجوا في المجتمع، وقد تحرص بعض العائلات على إطلاق أسماء من لغاتها الأصلية على أبنائها في الحياة اليومية بالتوازي مع أسمائهم الرسمية باللغة الإنجليزية، لكن والده أصرّ على تسميته بهذا الاسم الذي يعني في لغة شعبه الشجاع أو المقدام أو صاحب الهمّة.

علّق همام مندهشًا:

- حقًا؟! يا لها من مصادفة! إنه نفس معنى اسمي العربي.

- صدفة جميلة حقًا، وما أكثر الصفات المشتركة بيننا يا صديقي.

- صحيح، وأهمها أننا ورثنا دماء العزة من أجدادنا. نحن من شعوب لم ينجح الاحتلال في تركيعها.

- بالتأكيد، هل تعلم أن عدد أفراد قبيلتي ألغونكوين Algonquin كان حوالي ستة آلاف عندما وصل الأوربيون في أواخر القرن الخامس عشر، وبعد قرن ونصف انخفض العدد إلى ١٥٠٠ فقط!

- لن يفاجئني ذلك، بل لا أستبعد أن عدد أسلافك كان أكبر من ستة آلاف، فالتقديرات كلها مشكوك فيها.

ارتشف كيتشي من كأس القهوة مع نظرة حزن، وردّ:

- صحيح يا صديقي، لكننا نجونا من الإبادة، والآن يزيد عددنا عن ثمانية آلاف، وما زلنا متمسكين بأرضنا ولغتنا وثقافتنا.

- هذا عظيم، وشعبي أيضًا في فلسطين ما زال حيًا.

تنهّد همام، وكيتشي ينظر في عينيه طالبًا المزيد، فتابع:

- مع أني وُلدت بعيدًا عن تلك الأرض، ولم أزرها بعد، لكنها ستبقى وطني ما حييت.

هز كيتشي رأسه بقوة موافقًا، وارتشفا المزيد من القهوة بصمت، ثم بادر كيتشي بالسؤال:

- أخبرني الآن، كيف تذكرتني بعدما نسيتني كل تلك السنوات؟

ابتسما معًا، وأجاب همام:

- ما كنت لأنساك يا صديقي، ولكني مررت بتقلبات كثيرة. وكنتَ أول من خطر ببالي بعد استقالتي.

رفع كيتشي ذراعيه الضخمين مرحّبًا:

- أهلًا بك.

تابع همام بلهجة ارتباك:

- أنا.. في الحقيقة.. أشعر أني بحاجة لإعادة ضبط كل إعداداتي.

ابتسم كيتشي وقال ممازحًا:

- حتى لو استقلتَ، ستظل تفكر بعقلية المبرمج.

تابع همام بجدّية:

- ولذلك أحتاج إلى تصفير ذهني. أنا ملوّث حتى النخاع.

فكّر كيتشي وهو يشرب المزيد من القهوة، وردّ:

- هل فكرت برحلة تخييم؟ إنها بداية الصيف وموسم الاستجمام في الغابات

والجبال.

- هذا ما كنت أفعله كل سنة، ولكني بحاجة إلى تنظيف أعمق.

قال كيتشي مع نظرة متفحّصة:

- أظن أنك تلمّح لشيء ما.

- وأظن أن صديقي الذكي سيفهمني جيدًا.

- حسنًا.. تنظيف روحي إذن؟!

- نعم، وعلى طريقتكم: الشعوب الأولى.

- ما زلتَ مغامرًا فضوليًا كما عرفتك.

نهض كيتشي وهو يشرب آخر ما تبقى في كأس القهوة، وتابع:

- دعنا نبحث عن مطعم مناسب للغداء الآن، ثم نخصص لموضوعك هذا لقاءً آخر.

قام همام وهو يحاول تجرع كأس القهوة سريعًا، ثم علّق:

- حسنًا، أرجو أن أجد وجبة نباتية بسهولة.

ضحك كيتشي، وغادرا معًا.

الفصل الثاني

مرّ أسبوع على لقاء همام مع صديقه القديم كيتشي، وتواعدا على لقاء آخر. وصل همام إلى الحانة (بار) التي اختارها صديقه، وألقى جسده النحيل على أقرب مقعد أمام طاولة المشرَب.

تقدّم إليه نادل سمين، تملأ الوشوم ذراعيه ورقبته، وسأله ماذا يريد أن يشرب، فشكره قائلًا إنه سينتظر صديقه قبل أن يطلب.

وفجأة، ظهر لهمام شبح الحكيم من خلف النادل. فزع همام من رؤيته غير المتوقعة، وأدار النادل رأسه إلى الخلف باحثًا عن الشيء الذي تحدّق فيه عيون الزبون غريب الأطوار، لكنه لم يرَ شيئًا، فسأل همامَ بنظرة ساخرة:

- هل أنت بخير؟!

تمالك همام نفسه، وأجاب:

- عفوًا.. نعم، لا بأس، أنا بخير.

تمتم النادل بكلمات غير مسموعة، وانصرف إلى عمله، أما الحكيم فلم يُمهل همام كثيرًا. سمع همام على الفور صوت صفير مزعج، وشعر بصداع مفاجئ في رأسه. وضع يديه على صدغيه، وأغمض عينيه، وسرعان ما بدأ التخاطر. سأله الحكيم من غير أن يراه:

- هل تبحث عن الحكمة في حانة خمر؟!

ردّ عليه همام بالتخاطر أيضًا:

- لا لا!.. أنا أنتظر صديقًا فقط.

في هذه اللحظة مرّ نادل آخر خلف همام، وهو يحمل صينيّة ملأى بالكؤوس، وفجأة تعثّر وكاد أن يُسقط كل ما يحمله على همام. وبدون أن يلتفت همام أو

يفتح عينيه، سارعت يده لالتقاط الصينية قبل أن تسقط عليه، ثم التفت مسرعاً للخلف، فرأى النادلَ متجمّدًا من الذهول. تبادلا نظرات الدهشة بصمت، والنادل صاحب الوشوم يراقب المشهد العجيب من خلف طاولة المشرَب، والخوف يملأ عينيه.

نظر همام إلى يده وهي تحمل الصينية بثبات، ورأى شبحَ الحكيم الشفاف وهو يقبض على يده، فأدرك أنه هو الذي حرّك يده بسرعة خاطفة، ولا أحد يراه غيره.

أخذ النادل الصينية من يد همام، وقطع الصمت قائلًا:

- أعتذر سيدي.. شكرًا.. شكرًا جزيلًا.

هز همام رأسه مع ابتسامة مصطنعة، ولم يستطع إخفاء الدهشة عن وجهه.

ضحك أحد الزبائن وهو جالس عند المشرَب، وقال ممازحًا همام بصوت عال وهو يرفع كأس جعة ضخم:

- لا بد أنك لاعب بيسبول محترف!

رفع همام يديه مع ابتسامة وهزة رأس خفيفة، وتجاهل النظرات المتشككة من النادل صاحب الوشوم. غمز الحكيم بعينه لهمام، وتلاشى، وظلت ملامح الدهشة والارتباك على وجه همام، وكاد يهمّ بالهرب قبل أن يزعجه النادل بأي سؤال مُحرج، لكن كيتشي وصل في الوقت المناسب، وفاجأ صديقه بتحيته الصاخبة، ثم قعد بجانبه.

ردّ همام التحية بهدوء، وسارع كيتشي لطلب كأس من الجعة، أما همام فطلب كأسًا من عصير الليمون. نظر إليه كيتشي وسأل ساخرًا:

- عصير الليمون؟!

- آه.. تركت الشرب والتدخين منذ سنوات.

- أنت تغيرت بالفعل يا صديقي!

ردّ مع ابتسامة مجاملة:

- وما زلتُ أبحث عن التغيير.

وضع النادل الكأسين أمامها، وتجرع كيتشي من كأسه ثم قال:

- حسنًا، أنا أستمع.

ارتشف همام بعض العصير، ومنح نفسه برهة لترتيب الذكريات، ثم أخذ يحدّث صديقه عن ولعه بالعلوم الباطنية والسرية منذ كان طالبًا في الجامعة. كان الأمر في البداية أقرب إلى فضول المراهقين، وإشباع غريزة اكتشاف المجاهيل، إلا أنه لاقى هوىً في نفسه، وتحول إلى هواية تملأ حيّز الفراغ كله، لا سيما أنه لم يتلقّ تربية دينية في طفولته.

لم تعد القصص المسلّية والعبثية على مواقع التواصل ومنتديات الهواة الافتراضية تشبع نهمه، فصار يتردد على المكتبات العامة. كانت هناك أقسام مخصصة في كل مكتبة يزورها لهذه العلوم الباطنية، بدءًا بالكتب التجارية التي يخلط أصحابها الجدّ بالهزل والخرافة بالحقيقة، ومرورًا بكتب التاريخ والعقائد التي تبحث في عمق الأسرار وتراث الأديان، ووصولًا إلى كتب السحْر والطلاسم الصريحة.

قال همام مستغرقًا في نبش ذكرياته:

- كانت هواية، ثم أصبحتْ نمط حياة، ولم تعد الكتب تضيف لي شيئًا

جديدًا، فعزمتُ على طلب الحكمة من منابعها، وحضرتُ دروسًا كثيرة في بعض المعاهد المتاحة هنا، لكنها لم تقدم لي الكثير أيضًا.

كانت الدهشة بادية بوضوح على وجه كيتشي، ولم يرغب في التعليق. ظل ينظر لوجه صديقه وهو يشرب العصير منتظرًا تتمة القصة، فتابع همام:

- كنت أسافر في كل إجازة إلى آسيا لممارسة الهندوسية والبوذية في المعابد.. تايلاند، الهند، كمبوديا، بالي، سريلانكا، ثم بدأتُ الاهتمام بالمعتقدات الأصلية لأمريكا الجنوبية. زرت بوليفيا والبرازيل الصيف الماضي، بحثًا عن حكمة الأمازون، وما زلت أبحث.

توقف همام عن الحديث ليشرب، وكيتشي ينظر إليه بدهشة، فسأله:

- عن ماذا؟!

- المعرفة.. أسرار الوجود.. الاستنارة...

هز كيتشي رأسه وكأنه اكتشف شيئًا، وتابع همام:

- وأحيانًا العلاج.

فضّل كيتشي البقاء صامتًا، واكتفى بالشرب، فبادره همام:

- ألا تريد أن تسألني أين سأبحث الآن؟

- ربما على المريخ؟!

- بل أقرب بكثير.

رفع كيتشي حاجبيه مستفسرًا، وأجابه همام:

- عند شعبك.

أدار كيتشي الفكرة في رأسه قليلًا، ثم سأل مندهشًا:

- الحكمة عند شعبي؟! شعبي أنا؟!

ضحك همام، ثم أخذه السعال قبل أن يهدأ، وأجاب:

- كأنك نسيت تراث شعبك العريق!.. أتعلم يا صديقي؟ أعتقد أن الحكمة مثل قطع الأحجية، وأنها تفرّقت بين شعوب الأرض منذ آلاف السنين. عليك فقط أن تجمع من كل شعب قطعة، ثم تكتمل بين يديك الصورة في النهاية.

كان كيتشي منهمكًا بالشرب والتفكير فيما يسمع، ثم قال:

- لم أفكر بمثل هذا العمق من قبل.

- هل تقصد أنك تكتفي بالأجوبة الجاهزة؟

- يبدو أني مثل معظم الشباب من أبناء جيلي. لم أكن أفكر بأي أجوبة أصلا. الحياة المادية حوّلتنا إلى أجزاء صغيرة من آلة ميكانيكية هائلة، وتفكيرنا لا يتجاوز هموم الحياة اليومية.

- تمامًا.. هل تذكُر يا صديقي مشروع التخرّج الذي قدمتُه؟

- نعم، أذكره جيدًا. البروفسور أكد لك آنذاك أنه يمكنك الحصول على تمويل لتحويل مشروعك إلى شركة ناجحة. كنا نتوقع أنك ستصبح من نجوم وادي السليكون خلال بضع سنوات.

- صحيح، شعرتُ حينها أني مخيّر بين الانغماس في النجاح المهني والمادي وبين الإغراق في الروحانيات، لذا قررت الاكتفاء بوظيفة، وهكذا أحصل على دخل ثابت، ويبقى نصف وقتي متاحًا للتعلم والتأمل.

قال كيتشي ممازحًا بلهجة ساخرة:

- ثم استقلت!

- نعم، ادخرتُ مبلغًا يكفي للتحرر مؤقتًا من عبودية الوظيفة. وعندما أفلس سأبحث عن حل.

- ليتني أملك جرأتك!

تجرّع كيتشي ما بقي في كأسه، وأكمل:

- طالما الأمر هكذا، لن أسهر الليلة كعادتي. لنذهب إلى النوم الآن، وفي السابعة صباحًا ستجد سيارتي بانتظارك أمام المبنى الذي تسكن فيه.

- إلى أين؟!

نهض كيتشي من مقعده، وقال وهو يربّت على كتف همام:

- اسمع! جهّز حقيبة ملابسك، وأحضر المبلغ الذي يكفيك حسب المدة التي تريدها. الشامانات لا يقبلون إلا نقدًا.

- أي شامان؟!

- الشامان أنغاكوك، على بعد ثلاث ساعات من تورونتو.

شعر همام بالارتباك وهو يسمع هذه الخطة المفاجئة، هزّ رأسه موافقًا، ولم يمهله كيتشي حتى يناقش، ودّعه وغادر مسرعًا.

عاد همام إلى غرفته تلك الليلة، وفي قلبه خليط من مشاعر الفضول والترقّب والحماس لمغامرة اليوم التالي. كان متعبًا كالعادة، وهو يحمل بيده عدة ظروف استخرجها من صندوق بريده، قلّبها بيده وهو يقرأ العناوين سريعًا:

- مصلحة الضرائب.. التأمين.. البنك.. المستشفى..

ألقى الظروف على طاولة صغيرة بجانب الأريكة غير مكترث، وسارع إلى حقيبته الصغيرة ليضع فيها بعض الملابس، ثم أخرج من دُرج خزانته مبلغًا من المال وأدخله في جيب الحقيبة.

ارتمى على سريره قبل أن يغيّر ملابسه، وذهب في نوم عميق.

في الصباح، استيقظ مع رنين المنبّه، تجهّز سريعًا، حمل حقيبته وخرج مسرعًا ليجد سيارة كيتشي بانتظاره.

انطلقت السيارة شمالًا باتجاه الغابات، حيث تسكن بعض عائلات قبيلة كيتشي في محميّتها الطبيعية، وهي آخر ما بقي لهم من أرض الأجداد.

كان همام يرفض تشغيل مكيف السيارة، أو الاستماع للأغاني من المذياع، ويفضّل فتح النوافذ للاستمتاع بهواء الغابات. شعر كيتشي بالملل فقرر فتح الحوار:

- إذن، قرأتَ عشرات الكتب عن أساطيرنا ومعتقداتنا، والآن تريد معرفة المزيد؟

استغرق همام بعض الوقت ليجيب وهو ينظر للأشجار من نافذته:

- تمامًا، فهناك دائمًا من الحكمة ما لا يُسجّل في الكتب.

- حسنًا، صحيح. وهذا ما كنت أريد أن أوضحه لك، فبعض معتقداتنا خاصٌ جدًا، وسرّيّ.

نظر إليه همام مستوضحًا، وأكمل كيتشي:

- حتى عامة أبناء شعبنا لا يتلقّون هذه الأسرار من الشامانات والحكماء، إلا إذا انخرطوا في مسار طويل من التدريب والممارسة.

تململ همام وأظهر الضجر في حركة عينيه، والتفت إلى النافذة ليقول:

- هذه هي العقبة التي أصطدم بها أينما ذهبت!

تجرأ كيتشي على المتابعة، وقال مع ابتسامة خجولة:

- لا تنس أيضًا أن معتقداتنا خاصة بنا. نحن لا نؤمن بالتبشير ودعوة الناس، لذا لا يرحّب أجدادنا بأسئلة الضيوف الفضوليين.

- كنت أتوقع ذلك.

حاول كيتشي إصلاح الوضع، وتابع مبتسمًا:

- لكن لا تقلق، سأحاول إقناع الشامان أنغاكوك. أحيانًا يقدّمون بعض التنازلات.

- شكرًا صديقي، لا بد من تكرار المحاولة.

سكت همام برهة، وأكمل بصوت خافت:

- وهذه قد تكون الأخيرة.

نكز كيتشي صديقه بيده مداعبًا، وقال مع غمزة بعينه:

- المهم ألا تقصّر معه في الدفع يا صديقي.

ابتسم همام بصمت، وتابع كيشتي محاولته لتلطيف الجو مع ضحكته الصاخبة:

- هيه.. اسمع.. إياك أن ترفض التدخين والشرب في أرضنا، لن تنجح تأملاتك إلا مع جرعة عالية.

اكتفى همام بابتسامة، وكيتشي يؤكد ضاحكًا:

- نحن من أهدينا السجائر للعالم، حتى المخدرات عندنا مقدّسة!

ضحك همام ضحكة خجولة، وتابعت السيارة طريقها في عمق الغابة البكر.

بعد ثلاث ساعات تقريبًا من بدء الرحلة، بدأ كيتشي الاستعانة بخريطة جهاز الملاحة عبر الأقمار الصناعية على شاشة السيارة، وشقّ طريقه في دروب ضيقة باتجاه القرية. سأله همام ممازحًا عن سبب جهله بالطريق المؤدي إلى موطن أجداده، فأجابه بأنه لم يزر القرية في حياته إلا مرّات لا تتجاوز عدد أصابع اليد، فكل الشباب تقريبًا يعيشون في المدن، ولم تبق هناك إلا عشرات العوائل فقط، وخاصةً كبار السن.

وصلت السيارة إلى مدخل طريق فرعي ضيق، وعلى جانبيه عمودان منحوتان من الخشب بارتفاع مترين، قال كيتشي:

- ها قد وصلنا.. هل تعرف ماذا يمثل «عمود الطوطم»؟

- قرأتُ القليل عنه، أظن أن كل قبيلة كانت تنحت مقدّساتها من الحيوانات على عمود خشبي ضخم، ثم تصبغها بألوانها الخاصة.

- صحيح، ويصبح العمود رمزًا لها يميزها عن القبائل الأخرى، ويتحول تلقائيًا إلى ما يشبه الوثن.

ركن كيتشي سيارته في فسحة ترابية أمام بيت عادي خشبي متواضع، وترجّلا، فُتح الباب وأطلّ رجل ستيني سمين، يرتدي سروالًا قصيرًا وقميصًا قطنيًا مفتوحًا على صدره وبطنه المنتفخ. كان أسمر البشرة وحليق اللحية، وينسدل شعره الرمادي على كتفيه. مشى ببطء على شرفة خشبية تمتد أمام باب البيت، وهو يحدّق في الشابين بملامح باردة.

أطلق كيتشي التحية بصوته الجهوري، فتعرّف عليه الشامان وابتسم، ودعاهما للقدوم. قعد الثلاثة على مقاعد خشبية في الشرفة، وأشعل الشامان غليونه ليدخّن، وبدأ كيتشي بتقديم صديقه للشامان.

تحدث كيتشي عن تفاصيل رحلة همام الروحية، وعن أسفاره في مشارق الأرض ومغاربها، وعن حماسه الشديد للتعرف على ثقافة قبيلتهم.

كان همام يكتفي بالصمت وهز رأسه كلما نظر إليه صديقه، بينما ينصت الشامان بوجه عابس يتجلى من وراء دخانه الكثيف، ثم ختم كيتشي حديثه:

- هذه هي قصة صديقي، وهو نشيط وذكي جدًا، وحريص على التعلم. أعدك بأنك لن تجد تلميذًا أفضل منه.

ضرب كيتشي كتف همام بيده الضخمة وهو ينطق جملته الأخيرة، فاهتز جسده النحيل كله، وأخفى همام تألّمه مكتفيًا بابتسامة مصطنعة. نفخ الشامان المزيد من الدخان، وعلّق بصوت خافت ونظرة متفحّصة:

- أرى ذلك.. الأرواح لا تكذب.

تلاقت عيون الشامان وهمام، وتسمّرت. مرّت نصف دقيقة من الصمت المفاجئ، اختلطت فيها مشاعر همام بالرهبة والفضول، ثم أغمض الشامان عينيه من دون حراك، وأتبعه همام مغمضًا عينيه. دبّ القلق في قلب كيتشي لكنه آثر المراقبة بصمت، وأدرك أن ثمة شيء غامض لا يفهمه على وشك الحدوث.

في عالم الأرواح، دخل الشامان ساحةً مظلمة مليئة بالدخان، وتطير من حوله أشباح برؤوس الحيوانات المنحوتة في عمود الطوطم، غراب أسود ونسر وسلحفاة وعنكبوت ضخم، وفي العمق أصداء قرع الطبول مع غناء يشبه المواء.

أما همام فدخل عالم الشلال، ووجد نفسه على ظهر صاحبه التنين وهو يحلّق به فوق النهر. شعر بالطمأنينة والارتياح، ثم لمح في الأفق دخانًا ينبثق من بوابة مظلمة، وسرعان ما تعرّف على الشامان وهو يخرج منها ببطء. وخلال ثوان، أعطى الشامان إشارة بيده لأشباح الحيوانات، فإذا بها تنطلق مسرعة لتهاجم همام. أدرك التنين خطورة المعركة، فضاعف سرعته، واستعرض مهاراته في المناورة، وكلما اقترب أحد الأشباح التفت إليه ونفث النار، فيولّي هاربًا.

ظل همام متماسكًا رابط الجأش، وكان ينبّه التنين صائحًا كلما اقترب منهما شبح. وفجأة ظهر الحكيم العملاق محلقًا أمامهما في السماء، وبسرعة خاطفة ضرب اثنين من الأشباح بعصاه الضخمة، وولّت البقية هاربة وهي تصيح وتعوي من الخوف.

فتح همام والشامان عيونهما معًا، وتبادلا نظرات الدهشة، كان همام يلهث، وقلبه ينتفض في صدره بقوة، ثم أخذته نوبة سعال، أما كيتشي فعقدَ الخوفُ لسانه، وظلّ ينقل عينيه بينهما بانتظار التوضيح.

نظر الشامان للغليون في يده وتفحّصه، فوجده مشتعلًا، سحب منه نفَسًا عميقًا ونفخه إلى الأعلى ببطء، ثم نظر إلى همام نظرة عميقة وهو يستعيد هدوءه. وقال:

- إذن.. حصلتَ على «روحك الحارسة»؟!

هز همام رأسه بثقة وصمت.

سحب الشامان نفَسًا آخر من الغليون، ونفخ قائلًا:

- يا لها من روح قوية!

نظر كيتشي لصديقه نظرة دهشة وإعجاب، ولم يجرؤ على الاستفسار. أما همام فتفاءل بأنه سينال مبتغاه لدى هذا الشامان المتمرس، وقد يجد لديه من الحكمة والأسرار ما لم يجده في أصقاع الأرض.

فُتح باب المنزل، وخرجت امرأة في منتصف الخمسينات من العمر، تتجلى البساطة على وجهها وملابسها، وهي تحمل كؤوس العصير. قدّمتها للضيفين، بينما كان الشامان يعرّف همام على زوجته.

انتهز كيتشي الفرصة للخروج من حيرته، وصاح بصوته الجهوري:

- أهلًا جوانا.. شكرًا.. جاء العصير في الوقت المناسب.

اتفق كيتشي مع الشامان على أن ينزل همام ضيفًا عنده، لكنها ضيافة بالمعنى الغربي الذي يدفع صاحبه المال مقابل الخدمة، وكان همام معتادًا على هذا

النوع من الإقامة، فكثيرًا ما حلّ ضيفًا على نُزل ومعابد في شرق آسيا، ودفع مقابل إقامته وطعامه وغسيل ملابسه.

مرّ اليوم الأول سريعًا، وأخبرت جوانا ضيفيها بأن الغرفة أصبحت جاهزة لمبيتهما. استلقى كل منهما على فراش أعدّته لهما على الأرضية الخشبية، وبدأ كيتشي حوار ما قبل النوم:

- لا أدري ما هو السّحْر الذي كان بينكما، لكن يبدو لي أن الشامان معجب بك.

- اعذرني على التكتّم يا صديقي، لا أستطيع أن أخبرك بالتجربة التي مررنا بها في لقائنا الأول. ربما أخبرك لاحقًا.

- لا بأس، أعلم أن من يخوضون التجارب الروحية لا يبوحون بها.

مرّت دقيقة من الصمت، وهمام ينظر للسقف، وهو سارح الذهن في استعادة ذكريات التجربة، ثم قال:

- أتدري؟ أشعر أنها رحلتي الأخيرة.

التفت كيتشي إليه، وسأل:

- ماذا تعني؟!

- إما أن أبلغ الاستنارة التي أبحث عنها هنا، أو ستكون النهاية.

أدار كيتشي ظهره استعدادًا للنوم، وقال:

- أنتم دائمًا تحبون الألغاز!

لم يعلق همام، فتابع كيتشي:

- غدًا سأعود إلى تورونتو صباحًا. جوانا أخبرتني أنها ستخصص لك هذه الغرفة طوال فترة إقامتك، تصبح على خير صديقي.

واصل همام التفكير ناظرًا إلى السقف، وقال بعد برهة:

- تصبح على خير.

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، استيقظ همام ووجد صديقه يرتدي ملابسه ويتهيأ للمغادرة. قال كيتشي:

- صباح الخير! هل نمت جيدًا؟

نهض همام جالسًا عاري الصدر، وأجاب بصوت خافت:

- صباح الخير، نعم، كانت ليلة هادئة.

- حقًا؟! ألم يزعجك شخيري؟

ضحك همام، وأجاب:

- قليلًا فقط.

- حسنًا، هذا جيد. أما أنت فكنت تسعل كثيرًا، أعتقد أنك بحاجة لمراجعة طبيب يا صديقي.

لم يعلّق همام، وتابع كيتشي:

- أظن أن الحرّ هو الذي أيقظني قبل رنين المنبّه. الشامان لا يفكر بتركيب مكيف هواء هنا، وهذه المروحة لا تجدي كثيرًا في الصيف!

- لا بأس يا صديقي، أنا أفضّل التعايش مع الطبيعة في كل الظروف.

- آه.. نعم! أنتم الروحانيون تكرهون التكنولوجيا.

حزم كيتشي حقيبته الصغيرة ووضعها على ظهره، وأكمل ضاحكًا:

- لا أدري كيف أصبحتَ مبرمِجًا!

خرج كيتشي من الغرفة وتبعه همام، ناولتهما جوانا كأسي قهوة فقدّما لها الشكر، وتوجه كيتشي إلى سيارته، وقبل أن يودّع همام أكد له أنه اتفق مع جوانا على كل التفاصيل، وأنها ستعتني به مثل ابنها، وطلب من همام ألا يتردد في الاتصال به إذا احتاج لأي مساعدة، أو إذا شعر بالملل وقرر العودة إلى المدينة. ردّ همام مبتسمًا:

- لا تقلق، أظن أن الشامان سيملّ مني قبل أن أملّ منه.

ركب كيتشي سيارته وهو يضحك، وقال مودّعًا:

- وربما تحتلّ مكانه أيضًا. إلى اللقاء، اعتن بنفسك جيدًا.

- شكرًا على كل شيء يا صديقي، رافقتك السلامة.

غادرت سيارة كيتشي، وتوجه همام نحو عمود طوطم خشبي في طرف الفسحة الترابية. وقف يتأمل تفاصيله وهو يشرب القهوة. كان يرتدي فقط

سروالًا قصيرًا، وأشعةُ الشمس تلسع جسده النحيل، لكنه كان يؤمن بأن ضوءها المسافر عبر ملايين الأميال يحمل طاقة إيجابية مفيدة.

وضع همام كأس القهوة جانبًا، واختار زاوية يستقبل فيها عمود الطوطم مع جهة المشرق في آن واحد. وضع كفيه على فخذيه مع انحناءة بسيطة في ركبتيه، ورفع ذراعيه إلى الأمام مع شهيق عميق. بسط كفيه في اتجاه المشرق، وواصل تمارين التمدّد وفق تقنية «تاي تشي»، مستقبلًا «سيالات الطاقة الإيجابية»، وطاردًا «الطاقة السلبية»، بحركات متقنة.

كان الشامان يراقب المشهد منذ بدايته من مقعده في الشرفة، ويدخّن سيجارة. وبعد بضع دقائق، دفعه الفضول للقيام والاقتراب من همام بهدوء. وقف على بعد ثلاثة أمتار، وانتبه همام لقدومه فتوقف عن الحركة. بادر همامُ بالتحية، فردّ الشامان بمثلها، ثم نفخ الدخان بوجه عابس، وسأل:

- هل هذه يوغا؟!

- ليس تمامًا، إنها تاي تشي، رياضة صينية.

رفع الشامان حاجبيه، نفث الدخان مجددًا، وسأل:

- آها.. وهل تشحن طاقتك هكذا في الصباح؟

- نعم، أحيانًا. وأحيانًا ألجأ لليوغا، أو أتأمل فقط.

هز الشامان رأسه، وتابع همام:

- هل ستعلّمني؟.. أريد أن أتعلم طريقتك.

سحَب الشامان نفَسًا عميقًا من سيجارته، رفع رأسه ونفخ الدخان وهو يفكر، ثم رمى عقب السيجارة بين قدميه، وداس عليه حتى يطفئه. مشى

بضع خطوات ببطء، ووقف مستقبِلًا عمود الطوطم، طأطأ رأسه وقال:

- لم أرث عن أجدادي هذه التمارين، لكنها جاءتنا من شعب الماوري.

أشار بيده نحو الغرب، وقال:

- هناك، من نيوزيلاندا.

ثم نظر إلى همام وقال:

- سنقوم بتمرين «هاكيتيا تي ها» (Hikitia Te Hā).. نستمد الطاقة مع شهيق عميق في كل مرة، ثم نؤدي التحية لكل الآلهة. هل أنت جاهز؟

أبدى همام وضعية الاستعداد بكل جديّة، وهز رأسه مؤكدًا، وبدأ الشامان تمارينه، وهمام يقلّده بحماس.

حرّك الشامان يديه وكأنه يقبض الطاقة من الأسفل، ورفعها باتجاه صدره مع شهيق عميق، وردّد:

- ها كي رو تو.

انتظر حابسًا نفسَه بضع ثوان، وقال:

- ها كي وو هو.

ثم خفض يديه وهما ترفرفان إلى الأسفل، مع زفير من الفم بصوت عال.

كرّر الشامان التمرين مع تعديلات على حركة اليدين في كل مرة، وكان ينطق بكلمات عجيبة من لغة الماوري، وهمام يحاول اللحاق به.

وبعد خمس دقائق أنهى التمرين، وشرح لهمام أنهما كانا يقدّمان التحية لكل من إله السماء وهو الأب، وإلهة الأرض وهي الأم، ثم إله الغابة وإله الطقس

وإله الرياح وإله الزلازل وغيرهم. ثم سأله إن كان قد شعر بالطاقة تتسلل إلى جسده، وردّ همام بالإيجاب، مؤكدًا أنها تمارين قوية وفعّالة، ولا تقل نفعًا عن التمارين الصينية.

هزّ الشامان رأسه مع ابتسامة، وأبدى تفاؤله بنجابة تلميذه. سار باتجاه الشرفة، ودعاه للحاق به كل يتناولا الإفطار معًا. لحق به همام على الفور وهو أشد تفاؤلًا، بينما كان شبح الحكيم يراقب المشهد بصمت من غير أن يُرى، ثم طار محلقًا في السماء.

الفصل الثالث

مرّ أسبوعان كاملان على بدء إقامة همام في منزل الشامان، كان يمارس كل صباح تمارين التحية لكل الآلهة، ويرافق الشامان في بعض الأيام إلى بحيرة مجاورة لصيد الأسماك، ويستمع منه خلال الرحلة عن حكايات الأرواح الكامنة في الأشجار والصخور والجبال، وأيضًا في البحيرة التي تجود على قبيلته بالغذاء منذ قرون.

ومع اكتمال الأسبوع الثاني، وفي ليلة صيفية مقمرة، رأى همام نفسه في المنام ممتطيًا ظهر التنين، وهو يحلّق به في عالم الشلال الجميل.

كان همام مستغرقًا في التمتع بالمنظر الخلاب، وشعر بأن التنين يحمله إلى وجهة ما، وما هي إلا لحظات حتى أطلّ الحكيم بقامته الفارعة من بعيد، واقفًا على قمة جبل ورديّ يتلألأ تحت ضوء الشمس.

شق التنين طريقه ببراعة حتى بلغ قمة الجبل، وتوقّف معلقًا في السماء قبالة الحكيم. ألقى همام التحية باحترام، فردّ الحكيم التحية مبتسمًا، وسأل:

- هل تشعر بتحسّن يا همام؟

وضع همام يده على صدره، وملامحه تنضح بالألم، وقال:

- لا أدري يا سيدي.. ما زلت أعاني أحيانًا.

رفع الحكيم يده، ورسم بإصبعه على صدر همام رمز نجمة خماسية. نظر همام إلى صدره وهو يتلمّسه بيده، فرأى رمز النجمة يشعّ ضوءًا ذهبيًا، وقال الحكيم:

- لا بأس عليك، ستتحسّن قريبًا.

شكر همام الحكيم بامتنان كبير، ثم قال:

- مضى علي أسبوعان في تلك الغابة، وأنا أتعلم وأنظف طاقتي وأشحنها كل يوم.

- هذا جيد، تابع يا همام ولا تتراجع.

علّق بشيء من الضجر:

- ولكن لم يكشف لي الشامان أي أسرار بعد!

- لا تتعجل! كل شيء سيأتي في أوانه.

أشار الحكيم بيده للتنين، فرفرف بجناحيه، وطار حاملًا همام بعيدًا، بينما رفع الحكيم عصاه مودّعًا.

متّع همام ناظريه مجددًا بجمال الغابة الساحرة، وبدا له أنها تزداد ألقًا كل مرة. تعلّقت عيناه بشجرة ضخمة في الأفق، كان التنين يحلق باتجاهها، وكلما اقترب منها كانت تبدو أكثر لمعانًا وجمالًا، ثم ظهرت له من تحت جذورها رموز غريبة، وهي تشعّ ضوءًا ذهبيًا بديعًا. كان أحد الرموز مكوّنًا من دائرة يتوسطها جدول من ستة عشر خانة، وفي كل منها حرفٌ عبري. ورمز آخر يظهر فيه مثلثان فوق بعضهما، مع كلمات عبرية أيضًا.

فتح همام عينيه، وانتبه إلى أنه كان غارقًا في حلم جميل. فوجئ بجوانا تقف عند باب الغرفة، فنهض جالسًا وهو يفرك عينيه، بادرته جوانا بتحية الصباح، وأخبرته أنها جهّزت له «كوخ العَرَق» في عمق الغابة، والشامان ينتظره هناك، ثم ذهبت إلى المطبخ، وتركته يتساءل عن معنى كلماتها.

كان همام عاري الصدر كعادته، فنظر إلى صدره وتحسّس بأصابعه موضع الرمز، وخُيّل له أنه رأى بصيص ضوء يشعّ منه. ابتسم، ونهض ليلبّي نداء جوانا.

دخل همام المطبخ، وسألها على استحياء عن القهوة التي لم يجدها جاهزة كعادته، أخبرته أنه ينبغي عليه مواصلة الصوم المستمر منذ الأمس. كان الجوع والعطش قد أعياه بالفعل، لكنه لم يجد بدًّا من الامتثال للتعليمات.

سار همام خلف جوانا عبر ممر ضيق بين أشجار الغابة، وبعد نحو خمس دقائق من المسير وجد الشامان ينتظره. كان كلاهما يرتدي سروالًا قصيرًا فقط، ووقعت عينا همام فورًا على كوخ خشبي على هيئة قبّة كبيرة، مغطى بقطع كبيرة من الجلود، وعلى مقربة منه حطبٌ مشتعل.

رحّب الشامان بهمام، ورفع قطعة كبيرة من الجلد حتى ظهر مدخل الكوخ، ودعاه للدخول. دخلا معًا وأحكم الشامان الإغلاق، ثم قعد ودعاه للقعود بجانبه.

كان المجلس دائريًا، ويتوسطه كوم حجارة كبيرة متوهجة في حفرة، وعلى الحجارة بعض أوراق التبغ والمرِيميَّة التي تبث عطرها، ولولا بعض الشموع كان الظلام سيخيم على المكان المغلق بإحكام.

ألقى الشامان حزمة أعشاب إضافية على كوم الحجارة، وقال مبتسمًا:

- أعلم أنك متعب يا عزيزي. في العادة أشترط على الزبائن أن يصوموا قبل البدء ثلاثة أيام، وربما أكثر، لكنك نحيل جدًا. اكتفيتُ بتجويعك يومًا واحدًا فقط.

- لا بأس، فجسدي معتاد على كل أشكال التعذيب.

- أحسنت، أنت تذكرني بشبابي.

تهلّل وجه همام بالرغم من إعيائه، ثم تجرأ على السؤال:

- لم تخبرني بعد، ما هو كوخ العرَق؟ وماذا سنفعل؟

أدخل الشامان يده في وعاء ماء بجانبه، ورشّ الماء على الحجارة حتى أصدرت صوتًا مع تصاعد البخار، وأجابه مبتسمًا:

- الجواب واضح من اسمه يا صديقي، لكن الأمر لا يتعلق بالتعرّق فقط.

هز همام رأسه، وشرح له الشامان كيف عملت جوانا منذ طلوع الشمس على تسخين الحجارة فوق النار المقدسة في الخارج وهي تتلو الترانيم، ثم أدخلت الحجارة بعد عدة ساعات إلى الكوخ لتباركها الأرواح.

رشّ الشامان الحجارة بالماء مجددًا، ونظر إلى همام بجدّية، وتابع:

- الآن سنحيّي الأرواح التي تشاركنا الحفلة.

هز همام رأسه موافقًا، ثم نطق الشامان ببضع كلمات غريبة، وحاول همام تكرارها بصعوبة.

واصل الشامان رشّ الحجارة بالماء، وبدأ البخار يتكثف على سقف القبة، وأكمل الشامان حديثه وهو ينظر من حوله:

- هذا ليس مجرد ساونا للتعرّق، الكوخ يجسّد أرحام أمهاتنا، وعندما ندخلها فنحن في حضرة الأرواح. نصلي لها كي تباركنا، ونتخلّص من طاقتنا السلبية مع التعرّق.

أبدى همام اهتمامه بالأمر، وهمس:

- حسنًا، هذا جيد.

- «الحفلة» تستمر ساعتين، وبعد كل نصف ساعة نحصل على استراحة قصيرة في الخارج، بينما تغيّر جوانا الحجارة وتضع عليها الأعشاب لإكرام الأرواح.

اكتفى همام بهزّ رأسه موافقًا، وتابع الشامان:

- وفي النهاية.. نترك قربانًا من الفاكهة للأرواح المباركة، ونشكرها.

- وماذا أفعل أثناء جلوسنا؟

التقط الشامان طبلًا صغيرًا كان بجانبه، وبدأ يفرك جلد الطبل براحة يده لتسخينه، ثم نظر إلى همام وأجاب بجدّية:

- الصلاة فقط.. صلّ للأرواح التي جاءت من أجلك!

شرع الشامان بالنقر على الطبل، وأخذ يغني بلغته الأصلية. لم يكن صوته عذبًا على الإطلاق، وأسلوب الغناء المزعج كاد يستفز همام لولا ترويضه لنفسه على تحمّل ترانيم المعابد في آسيا.

اتخذ همام وضعية «اللوتس»، كما هو الحال في تأملاته على طريقة اليوغا. وضع كل قدم على الفخذ المقابل، وأسند يديه إلى ركبتيه، وأبقى ظهره منتصبًا. أغمض عينيه، وحاول جاهدًا الدخول في حالات «الوعي المتغيرة» التي اعتاد عليها، لكن صدره كان يضيق بالبخار المتصاعد، وأنفاسه تزداد اختناقًا، والعرق المتصبب يزيده إعياءً، وكان يجتهد في كتم سعاله كي لا يزعج الشامان والأرواح.

انتهى نصف الساعة الأولى بمشقة بالغة، وما إن رُفع الغطاء عن باب الكوخ حتى سارع همام للخروج وملء رئتيه بالهواء. لحق به الشامان للاستراحة، بينما قامت جوانا بمهمة تغيير الحجارة وتجهيز المكان، ثم عاد الرجلان إلى الكوخ لمتابعة «الحفلة».

تكررت معاناة همام مع ضيق التنفس والإعياء، لكنه كان يؤمّل نفسه طوال الوقت بالحكمة التي ستكافئه بها الأرواح، وبنعمة الاستشفاء التي قد تجود بها عليه. وفي نصف الساعة الأخير، وبعدما أخذ منه الجهد كل مأخذ، تضاعف الدوار في رأسه حتى شعر بفقدان الإحساس الجاذبية، وشعر فجأة أنه يهوي في هوّة سحيقة. لم يعد قادرًا على الحراك، ولا التفاعل، وكان يلمح فقط أشباحًا لكائنات شفافة تطوف من حوله بخفة، ثم تختفي. كانت لبعضها ملامح تزداد وضوحًا كلما حاول التحديق فيها، لكنها تسارع للتلاشي بمجرد تلاقي العيون.

مرّت دقيقة على همام وهو في هذا الوضع، لكنه شعر فيها أن الزمن قد توقف. لم يعد يسمع إيقاع الطبل وغناء الشامان، ساد الهدوء برهة، ثم أحس بقطرات ماء تضرب وجهه. ظنّ لوهلة أنه يخوض تجربة الشلال مجددًا، لكنه لم يرَ شيئًا حوله، بل ظلام دامس يحيط به من كل جانب. تجدد إحساسه بقطرات الماء، ثم سمع الشامان يناديه باسمه. فتح عينيه ببطء، وظل مذهولًا بضع ثوان حتى استعاد الوعي بمكانه وزمانه. رأى الشامان يرشّ بيده الماء على وجهه، وأدرك أنه كان في عالم آخر.

رفعت جوانا غطاء الكوخ ودخلت حاملة وعاءً خشبيًا، فدخل معها بعض الهواء البارد الذي أنعش رئتي همام، وكان سعاله الضعيف يؤكد انهيار قواه. وضع الشامان الوعاء في حِجر همام، ودعاه لكسر صيامه ببضع لقيمات،

قبض همام على الفور حفنة من التوت الطازج، وأكلها بشراهة. ضحكت جوانا من تصرفه، وشرح له الشامان أنه ينبغي ترك الطعام قربانًا للأرواح وامتنانًا لها على حضورها. واصل همام التهام بضع حفنات من التوت قبل أن يفكر بالتخلّي عن الوعاء، ثم أخذه الشامان منه بعدما فرغ نصفه، ووضعه عند كوم الحجارة مع ترديد عبارات الشكر للأرواح بلغته الأصلية.

انقضى أسبوع ثالث من إقامة همام في ضيافة الشامان، حتى كاد يعتاد على نمط الحياة في تلك الغابة، بعيدًا عن صخب المدينة.

كانت هناك عدة بيوت مترامية في الجوار، تسكنها عائلات أخرى من قبيلة الشامان، وأمارات الفقر والبساطة بادية على أفرادها. حاول همام أن يداعب بعض الأطفال عندما يصادفهم يلعبون في الجوار، لكن نظرات الأهالي المتشككة كانت تدفعه للتراجع غالبًا.

في مساء اليوم الأخير من الأسبوع، تلبّدت السماء بالغيوم، وبدأ رذاذ المطر بالتساقط. كان الشامان جالسًا مع همام على كرسيين في شرفة المنزل، وبدأ الشامان يحدّثه عن تفاؤل أجداده بالمطر، فهو يحمل روح الحياة الهابطة من السماء ويبثّها في أرجاء الأرض، وقصّ عليه بعض الأساطير التي يحفظها. أبدى همام بعض الاهتمام بما يسمعه، لكن الشعور بالرتابة كان يغلب عليه.

اشتد هطول المطر فجأة، ففتحت جوانا الباب ودعتْهما للدخول، دخل همام مسرعًا، بينما كان الشامان يتحرك ببطء، وكأنه يتبرّك بماء السماء. جلس

الثلاثة على المائدة لتناول الغداء، وناولتهما جوانا صحنين بعد ملئهما بقطع من السمك المشوي مع الفاصولياء.

وبينما كان الشامان منهمكًا بالأكل، قطع همام الصمت وقال:

- اليوم أتممتُ ثلاثة أسابيع في ضيافتكم..

تابع الشامان الأكل، وعلّق:

- ممم!.. ما أسرع انقضاء الوقت!

- حسنًا، ما هو تقييمك لي؟

نظر الشامان لهمام مستفسرًا، وكأنه لم يفهم السؤال، فتابع همام:

- هل ترى أني أتعلم جيدًا؟

وضع الشامان لقمة كبيرة في فمه، وقال ببرود وهو يمضغ:

- نعم.. لا بأس.. ربما.. ربما كان توقعاتي متواضعة، لكن كيتشي كان محقًا.. أقصد عندما قال إنك تلميذ نجيب.

ابتسم همام وشكره، ثم قال بشيء من الخجل والتردد:

- إذن.. ربما أكون مؤهلًا لاكتشاف بعض الأسرار؟

انشغل الشامان بالمضغ وهو يفكر، ثم قال بجدّية:

- أعتقد أن «حفلة» الليلة ستفتح لك أبوابًا جديدة.

تهلّل وجه همام، وقال:

- حقًا؟! وما هي؟

تجرع الشامان كأسًا مليئًا بالماء، ثم مسح فمه بمنديل، ونظر لهمام قائلًا:

- حفلة الآيوواسكا (Ayahuasca).

تابع الشامان الأكل والمضغ، بينما انشغل همام بالتفكير فيما سمع، حتى نبّهته جوانا إلى أن الطعام في صحنه سيبرُد، فشكرها وبدأ بتناول وجبته.

أرخى الليل سدوله على الغابة، وازداد حماسُ همام لاكتشاف الحدث الجديد. كان الهدوء الموحش يسود المكان، ويقطعه أحيانًا عواء ذئب يتردّد من عمق الغابة.

كان الشامان جالسًا على كرسيه المعتاد في الشرفة، ويدخن غليونًا طويلًا مخصصًا للطقوس والاحتفالات، وكانت جوانا تشعل النار في كوم حطب بالساحة الترابيّة المقابلة للمنزل.

خرج همام إلى الشرفة وقعد بجوار الشامان، وراقب جوانا وهي تفرش خمس حصائر من القش على الأرض التي بلّلها المطر، وبشكل دائري حول النار، ثم تضع فوق كل حصيرة قطعة سميكة من الجلد والفرو، وتضع بعد ذلك دلوًا فارغًا أمام كل حصيرة.

اقتربت سيارتا دفع رباعي من طراز فاخر، وخرج منهما أربعة شباب من العرق الأبيض، بملابس صيفية خفيفة، ووشوم ملوّنة متفاوتة الحجم على أذرعتهم، وهيئة تنبئ بمستوى اجتماعي فوق المتوسط. قدّموا التحية للشامان، فرحّب

بهم وهو جالس في مكانه، ودعاهم للجلوس على الجلود التي جهّزتها جوانا، وأشار لهمام كي ينزل من الشرفة إلى الساحة وينضم إليهم.

أخذ كل منهم مكانه واستعدّ، وقال الشامان:

- حسنًا يا أصدقاء، هل قرأتم كل التعليمات التي أرسلَتْها لكم جوانا بالبريد الإلكتروني؟

أجابوا بالتأكيد، فنفخ الشامان نفخة دخان كبيرة، وقال:

- رائع.. رائع.. إذن سنبدأ حفلة الآيوواسكا مباشرة.

تناولت جوانا صينية تحمل خمس كؤوس، وفي كل منها مشروب لونه بنّي غامق، وبدأت توزيعها عليهم، وهي تردّد:

- نؤكد أيها السادة أن حفلاتنا مرخّصة وقانونية، وأن أجدادنا أثبتوا منذ آلاف السنين أن مخدّر الآيوواسكا المقدّس آمن تمامًا. وقريبًا سيثبت العلماء أنهم كانوا مخطئين، كما تراجعوا سابقا عن اتهام الماريوانا. إنها مسألة وقت فقط.

تذكّر همام ما قرأه سابقًا عن هذا المخدّر المعروف في أوساط الروحانيين، فهو نبات استخرج منه السكان الأصليون في غابات الأمازون مادّة مُهلوِسة، واعتبروها مفعمة بالطاقة الروحانية الإيجابية، بينما كانت قبائل أمريكا الشمالية تستخرج العقاقير المهلوسة من بعض أنواع الفطر التي تنمو في بيئتها، وما زالت تُستخدم حتى اليوم في «حفلات» التأمل، لكن بعض الحكومات لم ترخّص استخدامها بعد، حتى لو زعم بعض المستفيدين ذلك. وبما أنها كانت فرصة نادرة للتجربة، فقد آثر همام الصمت وانتهاز الفرصة.

التقط الشامان طبلًا من جانبه، وبدأ يجهّزه، وقال:

- هذا شاي الديْم (daime tea)، فيه خلاصة الآيوواسكا. سنبدأ التأمل معًا، ثم تشربون ببطء.

بدأ الشامان النقر على الطبل مع الغناء بلغته الأصلية، وأشارت جوانا للضيوف بشرب أول جرعة، ثم اتخذوا وضعية اللوتس، وأغمضوا عيونهم كي ينطلقوا في رحلة التأمل. وبدا لهمام أنهم كانوا خبراء في هذه التجربة، فشرع في تقليدهم.

كان الشامان يقطع ترنيمه بلغته الأصلية أحيانًا، ويترنّم باللغة الإنجليزية التي يفهمونها قائلًا:

- دع روح الآيوواسكا النباتية تسري في عروقك.. ستُظهر لك ما تحتاج إلى رؤيته.. آيوواسكا تَفهَمُك أكثر مما تفهمُ نفسَك..

ثم يعود للغناء بلغته الغامضة، وينقر على الطبل بحماس يتصاعد تدريجيًا. أما جوانا فمشغولة بمهمّة أخرى، إذ تطوف على الضيوف واحدًا واحدًا، وتضع كف يدها على بطن كل واحد منهم، ثم تمسح بها على رأسه، وتُدخل أنبوبًا خشبيًا في فتحتي أنفه، وتطالبه بالاستنشاق. وعندما حان دور همام أخذه بعض السعال، لكنه تمكن من مقاومته.

مرّت بضع دقائق على التأمل والإنصات للترانيم وإيقاع الطبل، وكانوا يتجرّعون قليلًا من الشاي كل دقيقة وفقًا لتوجيهات جوانا. ومع اكتمال شرب الكؤوس، فتح همام عينيه قليلًا لينظر إلى النار المشتعلة أمامه، وشعر فجأة بأن كل شيء من حوله يتراقص.

كانت النار تتمدد في عين همام، والأرض تتموج ويتغير لونها. نظر إلى الأشخاص من حوله فرآى صورهم تتموّج أيضًا، كانت أبعاد الأشياء كلها تتمدد وتتقلص

باستمرار، كما تبرز منها ألوان ودوائر عجيبة، ثم تتحول إلى أشكال زخرفية متحركة.

فجأة سمع همام صوت أحدهم وهو يتقيّأ، والشامان يقول مترنّمًا وهو ينقر:

- التقيؤ تطهير.. الآيوواسكا تطهّرك من الطاقة السلبية..

توالى تقيؤ الضيوف واحدًا تلو الآخر، وسارع همام إلى الدلو الذي أمامه ليلحق بهم، وسمع الشامان يغني بحماس أكبر:

- دع روح الآيوواسكا تسري في عروقك..

شعر همام بالدوار وأخذ يتمايل، وسارعت جوانا لمساعدته على التمدد في مكانه، وتمدّد البقية أيضًا، بينما يواصل الشامان النقر والغناء.

تدريجيًا، زال عن همام الشعور بالدوار والغثيان، وحلّ مكانه شعور بالنشوة والنشاط. لم يعد يرى سوى زخارف متموجة بألوان متغيّرة، كما أصبح صوت الغناء عميقًا وله رنين.

بعد بضع دقائق، ظهرت لهمام ثعابين وخفافيش تتحرك وسط الزخارف المتموجة، بدا الأمر غريبًا ثم صار مقلقًا. تحوّلت الثعابين إلى وحوش، وأصبح مظهرها مفزعًا، وقبل أن تهمّ بمهاجمة همام ظهر الحكيم فجأة، امتلأ قلب همام بالطمأنينة فور رؤيته، وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى بدأ الحكيم بمطاردة الوحوش بعصاه الغليظة، ثم ظهر التنين بجانبه وكأنه انبثق من العدم، وانضم إلى الحكيم في مطاردة الوحوش. لم يكن الأمر سهلًا، وحاولت الوحوش المقاومة والمناورة، لكنها تلقّت من عصا الحكيم ضربات موجعة، وتعالى صياحها وهي تكتوي بنفثات اللهب من فم التنين، وانتهى الأمر بهروبها.

كان مشهدًا عجيبًا وغير متوقّع، لكن همام شعر بامتنان كبير، ووجد نفسه

عاجزًا عن النطق، فأومأ له الحكيم بالبقاء صامتًا، وخاطبه بالتخاطر قائلًا:

- اطمئن يا بني، أنت في حمايتنا دائمًا.

تلاشت صورة الحكيم والتنين وسط دوائر متموّجة، وسرعان ما خفتت تلك الأشكال والألوان تدريجيًا. فتح همام عينيه، ورأى نجوم السماء تتموج بدرجة أقل.

توقف الشامان عن الغناء والنقر، ووضع الطبل جانبًا. نهض همام جالسًا ليكتشف المكان من حوله، ووجد ثلاثة من الضيوف قد جلسوا مثله وهم يترنّحون، أما الرابع فما زال مستلقيًا خائر القوى.

كانت جوانا تطوف عليهم للتأكد من تعافيهم، والشامان يقول:

- أحسنتم.. أحسنتم يا رجال، ستشعرون ببعض الإرهاق لساعتين تقريبًا، لكن شعوركم بالنشوة والسعادة سيستمر لفترة أطول.

كان أحد الضيوف في حالة حماس شديد، وبدأ بالصياح كما يفعل رعاة البقر، ملوّحًا بيده وكأنه على ظهر حصان جامح. أما صديقه الذي بجانبه فأخذته نوبة ضحك، وتطوّر الأمر حتى صار ضحكًا هستيريًا متواصلًا.

لم يُظهر الشامان أي اكتراث لتلك التصرفات، وكأنه اعتاد عليها، واكتفى بالقول:

- خذوا قسطًا كافيًا من الراحة قبل أن تغادروا، ولا تقودوا سياراتكم حتى تستعيدوا طاقتكم الكاملة.

ثم قام الشامان ببطء من مقعده، وتوجّه نحو باب المنزل، وهو يقول:

- جوانا ستتابع معكم إذا أردتم التسجيل لحفلة أخرى، ولا تنسوا: هناك

خصم خاص لمن يتابع حضور حفلات إضافية. تصبحون على خير.

استعان همام بجوانا كي تساعده على الوقوف، وتوجّه إلى المنزل كي يرتاح في غرفته، لكنه غطّ في نوم عميق خلال دقائق، غير آبه بضحكات وصيحات الضيوف في الخارج.

مع انقضاء الأسبوع السادس في ضيافة الشامان، بدأ الملل بالتسلل إلى قلب همام. وفي مساء يوم عادي رتيب، تفحّص ما بقي معه من المال فوجد أنه ربع المبلغ الذي جاء به. خرج من غرفته إلى الشرفة، وقعد وحيدًا على الكرسي، وراح يراقب بعض أطفال الجيران وهم يلعبون بالكرة في الجوار.

بعد قليل، أخرج همام هاتفه الذكي من جيبه، وأخذ يتصفح مواقع التواصل الاجتماعي ليقضي على الملل. ظهرت له محاضرة لأحد مدربي اليوغا الشباب، فبدأ الاستماع، ووضع الهاتف على طاولة صغيرة أمامه، ثم أسند ظهره إلى الوراء، واسترخى متتبعًا بعينيه حركة الكرة بين أقدام الصغار.

بعد بضع دقائق من الشرح، قال مدرّب اليوغا:

- هذه النقاط الأساسية التي نعمل عليها لتنظيف الشاكرات، وهي تتأثر بحركات اليوغا. لذا يا أصدقائي لا تتفاجأوا عندما تشعرون بانطلاق مشاعركم الجيّاشة أثناء التأمل، وكما أخبرتكم سابقًا: الشاكرات هي مراكز تخزين المشاعر، وكلما نظّفنا هذه المراكز تتجدّد مشاعرنا.

كان همام مسترخيًا، ويداعب شعرات لحيته التي لم تمسّها شفرة منذ قدومه

إلى هذا المكان، لكن كلمات المدرّب استفزته، فقال لنفسه بصوت مسموع:

«ما أكثر المرتزقة في هذا المجال!.. كلما أراد أحدهم اكتساب بعض الشهرة افتتح قناة وزعم أنه مدرّب ومعلّم!».

واصل المدرّب الشرح قائلًا:

- ربما تؤدي الصدمات العاطفية إلى حالة من التعب والألم، ولكن عندما نمارس اليوغا نتخلص من التوتر العضلي، كما نفرّغ المشاعر المحتقنة في كل عضلة.

تحرّك همام بتثاقل نحو هاتفه المنصوب على الطاولة، ومرّر إصبعه على الشاشة بحركة غاضبة، وهو يقول:

«كنتُ أحمقًا عندما قررتُ الاستماع لك!».

أسند همام ظهره إلى الخلف، والتفت إلى الأطفال وهم يلعبون بالكرة، تاركًا هاتفه يعرض حلقة عشوائية من قناة أخرى، فكانت تبدأ بشخص يقول:

- السلام عليكم، أعزائي المشاهدين، هذه حلقة خاصة سأتابع فيها ما ذكرتُه سابقًا عن ارتباط طقوس اليوغا بالعبادة الهندوسية والبوذية للشياطين...

أطلق همام ضحكة ساخرة لا إراديًا، ونظر إلى الشاشة ليكتشف المتحدث الذي لم يسمع صوته من قبل. كان شابًا في مثل سنّ همام، لديه لحية قصيرة ويضع نظارة أمام عينيه، ويتحدث بنبرة هادئة ولغة عربية فصيحة.

أنعم همام النظر في الشاشة الصغيرة ليقرأ اسم المتحدث، ثم قرأه بصوت خافت: فراس الفارس، بينما كان المتحدث يتابع قائلًا:

- سأستضيف بعد قليل شابًا تائبًا، كان منخرطًا في ممارسات العلاج بالطاقة لمدة سنتين قبل أن يكتشف الحقيقة و...

سارع همام للتعليق غاضبًا بصوت مسموع:

«لم يبق إلا المشايخ ليحدّثونا عن العلاج بالطاقة.. هزلت!».

فتحت جوانا الباب وخرجت إلى الشرفة، وهي تحمل منشفة المطبخ لتجفف يديها. وقفت بجانب همام ونظرت إلى الأطفال، ثم ابتسمت قائلة:

- ها؟ تبدو مباراة مشوقة!

ظل همام متكئًا ومسترخيًا، وقال بصوت خافت وهو يشير للأطفال:

- هذا أفضل من الاستماع للمحاضرات التافهة.

اعتدل همام في جلسته، وأوقف تشغيل الحلقة على شاشة هاتفه، بينما نظرت له جوانا لتقول:

- يبدو أنك تشعر بالملل!

تنهّد همام، وأجاب وهو ينظر لهاتفه:

- صحيح.. هل لديك حل؟

- هل مللت من الإقامة لدينا؟

- لا، لا!.. ولكن.. لا أدري.. مرت ستة أسابيع ولا أشعر أني أنجزتُ الكثير.

قعدت جوانا على الكرسي المقابل له، ونظرت له باهتمام، وقالت:

- لا تكن متشائمًا عزيزي.. أعتقد أنك تحرز تقدمًا.

- صحيح.. صحيح.. ربما حضرتُ حتى الآن عشر حفلات في كوخ العرق، وخمس حفلات للآيوواسكا، ومارستُ عددًا لا يحصى من تمارين التأمل والصلوات

لكل الآلهة مع الشامان، ولكن..

أشاح همام بنظره نحو الأطفال، ولم يدرِ ما يقول. وضعت جوانا يدها على يده لإبداء تعاطفها، وقالت:

- هذا رائع.. ولكن ماذا؟

قال بشيء من الضجر:

- أنا أبحث عن نقلة نوعية..

ثم تابع بحماس:

- عن تجربة روحية غير مسبوقة.. عن كشف معرفي جديد..

نهضت جوانا واقفة وهي تفكر، ثم قالت مبتسمة:

- حسنًا عزيزي، لقد فهمت. سأتحدث للشامان اليوم، ربما يساعدك في خوض تجربة جديدة.

نظر لها همام بكل جدّية، وسألها عما تعنيه. رفعت جوانا رأسها، ونظرت لأحد الأطفال وهو يصيح فرحًا بعد تسجيله هدفًا، وقالت بحزم:

- تجربة «البحث عن الكشف» (The Vision Quest).

في صباح اليوم التالي، كان همام متحمسًا لبدء مغامرته الجديدة، لكنه لم يدرك بعد ما الذي ينتظره. حمل على ظهره حقيبة جهّزتها جوانا، وخرج مع الشامان نحو عمق الغابة.

وفي الطريق، بادر الشامان بالقول:

- لم أكن أرغب في أن تخوض هذه التجربة يا بنيّ، لكنها آخر شيء يمكنني أن أقدمه لك.

كان همام يمشي خلفه بين الأشجار، فقال متعجبًا:

- أرجو أن توضح سيدي!

- إنها «طقوس العبور»، نحن نخوضها في العادة عندما نصل إلى سن البلوغ، أولاً كي نتحول من أطفال صغار إلى رجال أشدّاء، وثانيًا كي يعثر كل منا على «الروح الحارسة» التي ستمدّه بالطاقة والحكمة طوال حياته.

أبدى همام اهتمامه، وطالبه بمزيد من الشرح، فقال:

- إذا اختارتك الأرواح واستجابت لصلواتك فستمنحُك الكشف الذي تستحقه.

توقف الشامان عن السير، والتفت إلى همام ليضيف بصوت خافت:

- الكشف سيساعدك على فهم معنى الحياة، وإدراك دورك المرسوم لك في المجتمع، وربما يفتح لك الطريق لتبلغ قمة الحكمة كي تساعد الناس.

ازداد الحماس في قلب همام، وعلّق:

- أرجو ذلك سيدي.

تابع الرجلان السير في طريق وعر بين الأشجار الكثيفة، وبعد مسير استغرق نحو نصف ساعة، توقف الشامان أمام شجرة هائلة الحجم، لم يرَ همام مثلها من قبل. انتزع الشامان الحقيبة من ظهر همام، وأخرج منها حصيرة وفراشًا رقيقًا ولحافًا ووسادة، وبدأ بتجهيز المكان عند جذع الشجرة، وهمام يساعده.

أخرج الشامان من حقيبة أخرى كان يحملها علبة أعواد ثقاب وزجاجة وقود، وطلب من همام مساعدته في جمع بعض الحطب. ثم أشعل النار في موقد محاط بالحجارة، يبدو من مظهره أنه كان قد استُخدم مرارًا لهذا الغرض من قبل.

قعد همام على الفراش كما طُلب منه، وأسند ظهره للشجرة، مستقبلًا جهة المشرق، وأمامه موقد النار على بعد مترين تقريبًا. ثم وقف الشامان أمامه ليشرح:

- عند هذه الشجرة المقدسة، أجيال لا تحصى من الحكماء العِظام حظوا بالاستنارة..

رفع الشامان رأسه نحو أغصان الشجرة الباسقة، وتابع بإجلال:

- ما زالت أصوات صلواتهم تتردد في المكان.. ما زالت أرواحهم تطوف بنا، وترشدنا، وتلهمنا.. وما زالت أمّنا الأرض تحتضنهم بكل حنان.

لامستْ هذه الكلمات قلب همام، ورفع رأسه لينظر إلى الأغصان العملاقة التي تظلّله. وتابع الشامان حديثه بلهجة حازمة:

- اسمعني جيدًا يا بني، ستصوم صومًا كاملًا أربعة أيام بلياليها، من غير طعام أو شراب، وستقضي معظم وقتك في التأمل والصلاة، مع الاستغناء عن النوم أيضًا قدر استطاعتك.

امتصّ همام شعوره بالصدمة، وتحامل ليُظهر أقصى قدر من الجلَد، وهز رأسه موافقًا. ثم قال الشامان:

- في الأصل عليك أن تصوم عن النوم أيضًا، وبعض التقاليد تشترط أن تقضي الأيام الأربعة كلها واقفًا على قدميك، أو سائرًا بين أربعة أعمدة.

ازدادت دهشة همام مما يسمع، وتابع الشامان الشرح وهو يتفحّص المكان:

- وبعضها يشترط أن تُعلّق أيضًا كالمصلوب على جذع شجرة أو عمود، وهناك أشكال أخرى من التعذيب لن أخبرك بها..

نظر الشامان إلى همام ورأى أمارات الفزع على وجه، وقال:

- لكني أظن أن صحّتك لن تتحمل هذا العذاب، لذا صلّيتُ للأرواح كي تكتفي بصيامك عن الطعام والشراب فقط، وأن تتقبّل حاجتك للنوم.

أظهر همام الامتنان، بينما أشار الشامان إلى الأرض متابعًا شرح التعليمات:

- انظر من حولك، سترى أننا داخل دائرة محدّدة بحجارة صغيرة. هذه البقعة المباركة اختارتها الأرواح منذ آلاف السنين، وما زالت تُباركِها وتُبارك كل من يطلب الاستنارة فيها.

نظر همام من حوله إلى حدود الدائرة باهتمام، وهزّ رأسه، ثم أوضح له الشامان أنه لا ينبغي له تخطي حدود هذه الدائرة طوال فترة مكوثه، وإلا فلن تحميه الأرواح من أي خطر قد يتهدّده خارجها، ولن تنجح أيضًا تجربته الروحية حتى لو أخطأ بالخروج لخطوة واحدة.

استبشر همام خيرًا بخبر الحماية، فالغابة لا تخلو من الذئاب والدببة، لكنه أخفى امتعاضه من تقييد حركته. أشار الشامان إلى الشجرة بيده، وتابع قائلًا:

- قضاء الحاجة خلف الشجرة من الطرف الآخر، وداخل الدائرة بطبيعة الحال.

أكد همام استعداده للتقيّد بكل التعليمات، وأخذ الشامان يتفقد المكان للتأكد من أن كل شيء على ما يرام، ثم اقترب من همام وهو يقول بحزم:

- نادِ على الأرواح بكل طاقتك ومن أعماق روحك.. اهمس لها حينًا، واصرخ بأعلى صوتك حينًا آخر.. ابذل كل ما لديك حتى تسترضيها، وكن على يقين بأنها في النهاية ستجيبك.

هز همام رأسه بحماس، ثم قرفص الشامان أمامه، ووضع يده على كتفه ليقول بصوت خافت:

- لا تنس الدرس الأهم: إياك أن تخاف، مهما رأيت. قد تختبر الأرواح قوتك وشجاعتك، وإذا فشلت، سيكون عقابك عسيرًا.

ثبّت الشامان عينيه في عيني همام ليختبر شجاعته، وأصرّ همام على إظهار عزيمته، مؤكّدًا له أنه سينجح.

ربّت الشامان على كتف همام بثقة، وذكّره بأنه كان قد خاض هذه التجربة بنفسه في سن صغيرة ونجح فيها، وأن نجاح همام بعد سن الثلاثين سيكون أسهل بكثير.

ودّع الشامانُ همام بعدما أخبره أن الانسحاب ممكن إذا أراد في أي لحظة، لكنه سيضطر للعودة إلى المنزل بنفسه، فلن يبقى معه هاتف، ولن يزوره أحد حتى تنتهي المهلة.

لم يكن اليوم الأول سهلًا، فالوقت يمر ببطء شديد، ولا شيء من أدوات الترفيه يمكن أن يسلّي همام، وليس معه إلا عقله لينشغل به، وليسرح مع أفكاره وذكرياته وأحلامه.

تجول همام عدة مرات في حدود الدائرة، وكان يحاول تخيّل الأحداث العظيمة

التي شهدتها هذه البقعة الصغيرة. أخذ يتفحّص الشجرة من كل جوانبها، ولاحظ بعض علامات النحت الباهتة، وخمّن أن هناك من حاول حفر بعض الرموز السحرية على جذعها قبل عقود، أو ربما قرون طويلة.

حاول أن يصبّر نفسه بتذكيرها بأن اليوم الأول سيكون أقل مشقة، فحالة الجوع والعطش ما زالت في بدايتها. لكن هذه الفكرة بدأت تفقد صلاحيتها مع اقتراب موعد غروب الشمس، فأصبح يسلّي نفسه بالأمل في الجائزة الكبيرة التي سينالها في نهاية التجربة.

اتخذ همام وضعية اللوتس ليتأمل عند الغروب كعادته، لكنه لم يحظ بأي تجربة روحية مميزة. ومع هبوط الليل، صبّ همام المزيد من الوقود على الحطب ليحافظ على النار مشتعلة، ولم يمرّ وقت طويل حتى ذهب في نوم عميق.

كان النوم متقطعًا، وكان همام يبحث عن هاتفه كلما استيقظ ليتحقق من الوقت ثم يتذكر أنه محروم منه. وفي وقت ما بعد منتصف الليل، سمع صوت حركة قريب، فسارع إلى الوقود ليغذّي النار بها، وأخذ يستجدي الأرواح لحمايته بصوت خافت، ويذكّر نفسه بوعود الشامان بالأمن والسلامة داخل الدائرة المباركة.

طلعت الشمس بعد ليلة عصيبة، وضربت أشعتها وجه همام ليستيقظ. كانت أول خاطرة تنقدح في ذهنه هي الامتنان للأرواح لقاء حمايتها له، كما تفاءل بالحصول على قدر وافر من النوم مع أنه كان متقطعًا، وتجاهل توصية الشامان له بمقاومة الحاجة للنوم قدر استطاعته، محدثًا نفسه بأن النوم هو آخر ما تبقى لديه لقضاء الوقت بلا ملل.

جلس همام مسندًا ظهره للشجرة، ومستقبلًا مشرق الشمس، وبدأ تأملاته،

ثم نهض ليمارس تمارين «تاي تشي» الصينية، ومن بعدها تمرين «هاكيتيا تي ها» لشعب الماوري، وقدّم التحية لكل «الآلهة» التي يعتقد أنها تحلّ في الطبيعة وتباركها.

كان الصباح في أحضان الطبيعة منعشًا، وأصوات الطيور وقفزات السناجب تزيده بهاءً، لكن آلام الجوع والعطش تعكّر صفو المشهد الجميل.

شعر همام بأنه قصّر في التأمل بيومه الأول، وعزم على الاجتهاد في اليوم الثاني، وقضى بالفعل عدة ساعات في التأمل، يتخللها قدرٌ من المشي للترويض، مما ساعده على تجاوز مشاعر الملل وأوجاع الصيام.

عند الغروب، جلس همام مستندًا للشجرة، وبدأ يترنم بما حفظه من أغاني الشامان بلغته الأصلية. كان صوته خافتًا، وصدره يعاني من السعال المتقطع. نظر إلى أغصان الشجرة فوق رأسه باحثًا عن الأرواح، وأخذ يستجديها لتظهر له. توسّل بجوعه وعطشه، وبآلام جسده المتهالك، وبتوق روحه للخلاص.

غفى همام في وضعيته جالسًا، والنار ما زالت مشتعلة. وفي وقت ما من الليل، فتح نصف جفونه باسترخاء، وإذا به يرى بومة سوداء واقفة على الأرض بجانب شعلة النار، وكانت تنظر إليه بعينيها اللامعتين. انتبه همام من نومه وتوسّعت عيناه ليحدّق فيها، فسارعت لنشر جناحيها وطارت بعيدًا.

في صباح اليوم الثالث، استيقظ همام متأخرًا في وقت الضحى، فلم يمارس التأمل والتمارين عند شروق الشمس. كان في غاية الإعياء، وشفتاه متشققتان من العطش، حدثته نفسه أكثر من مرة بأن ينسحب من هذه التجربة القاسية، أو حتى يأكل شيئًا من ورق الشجر. لكنه كان يقاوم هذه الخواطر ويدفع نفسه للنوم لأطول مدة ممكنة، عسى أن ينشغل به عن معاناته.

لم ينهض من فراشه طوال اليوم، وعند الغروب حاول أن يتمتم ببعض الترانيم، لكن نطقها كان صعبًا، ووعيه شبه غائب، حتى لم يعد يفرّق بين أحلام النوم واليقظة. وفي الليل، لمحت عينه البومة تقف مرة أخرى عند النار وتراقبه بصمت، لكنه لم يكن متأكدًا مما رآه، وحسب نفسه يحلم.

وفي صباح اليوم الرابع، استيقظ همام على صوت حيوان يسير فوق أوراق الشجر، لكنه كان قد فقدَ الإحساس بالخوف، وظلّ مستلقيًا وملتحفًا الغطاء غير مكترث. وبعد ثوانٍ، ظهر ذئب أشهب يسير ببطء. لم يتحرك همام، وظل يراقب من غير حراك. اقترب الذئب بخطوات حذرة، وما إن وصل إلى حدود الدائرة حتى توقف. نصبَ أذنيه، وحرّك ذيله، وأخذ يتحرك ذهابًا وإيابًا بمحاذاة محيط الدائرة من غير أن يتجاوزه، ثم التفت للخلف وتابع مسيره.

أنعش هذا المشهد قلب همام، وأيقظ عقله من سباته وهذيانه، وأمدّه بطاقة كامنة كان يظن أنه فقدها. نهض جالسًا ليتأمل في المكان، وبصوت خافت نطق ببعض كلمات الامتنان للأرواح.

بدأ يفكّر فيما رآه من قبل، فكيف تمكّنت البومة من اختراق الدائرة والمكوث فيها؟ أم أن الأرواح لا تدفع سوى الحيوانات المتوحشة التي قد تؤذيه دون غيرها؟ أو لعل البومة تحمل سرًا آخر؟ تساءل أيضًا عن سبب غياب الحكيم، وهو رفيقه الذي لا يفارقه حتى في أيامه العادية، فلماذا لم يزره طوال هذه التجربة الروحية؟ ثم سأل نفسه: لماذا دفعه الشامان للبحث عن روحه الحارسة بهذه التجربة الصعبة، وهو يعرف أن لديه روحًا حارسة منذ لقائهما الأول؟!

جدّد همام العزم على بذل أقصى جهده لاستجداء الأرواح، فهذا يومه الأخير، وإن لم تظهر له الأرواح فسيذهب عناؤه هذا كله هباءً. كان يحرّك لسانه

بصعوبة، وقد يهذي أحيانًا ويفقد الوعي، لكنه ظل متمسكًا بهدفه إلى أن جاء موعد الغروب.

كان همام مستلقيًا على جنبه في حالة انهيار، يتمتم بما قد يعيه من ترانيم، وعيناه مسترخيتان في حالةٍ وسطى بين اليقظة والنوم. ثمّة لسان لهبٍ صغير يتراقص في الحطب، والهدوء يعمّ المكان، ثم هبّت نسمة هواء سريعة فأطفأت النار.

فتح همام عينيه، وإذ بالبومة ترفرف بجناحيها فوق الحطب، وتنظر إليه بعينيها الواسعتين. أدرك همام على الفور أن ثمة شيئًا غير مألوف على وشك الحدوث، فنهض ببطء، وعيناه تحدّقان في عينيها بانتظار التالي.

هبطت البومة على الأرض، وأخذت تحرك رأسها في كل الاتجاهات، وكأنها تراقب المكان. قاوم همام غريزة الخوف باستجداء الأرواح وطلب حمايتها، ورفع صوته قدر استطاعته. أشارت البومة بجناحها وكأنها تومئ له بالصمت، لكنه واصل الاستجداء بحماس أكبر.

خفضت البومة رأسها قليلًا، ونشرت جناحيها على الأرض. وفي حركة خاطفة كلمح البصر، انبثق من حولها عمود دخان أسود، وانقلبت إلى ثعلب ينهض واقفًا على قدميه وكأنه إنسان.

عقدَ المشهد العجيب لسان همام، وعمّت القشعريرة كل شعرة في جسمه. تذكّر على الفور وصية الشامان بمقاومة الخوف، واستحضر كل ذرة قوة بقيت في كيانه ليتجاوز هذا الامتحان العصيب.

اكتفى الثعلب بالوقوف ثابتًا على بعد نحو مترين من همام، وظل ينظر إليه في دقيقة صمت، ثم نطق بلغة إنجليزية سليمة وصوت عميق:

- هل أنت خائف؟

عجز همام عن الرد، واكتفى بهز رأسه نافيًا، فقال الثعلب:

- هذه حقيقة.. أنت لا تحلم.

ابتلع همام ريقه، وشعر بقلبه يكاد يبلغ حنجرته، لكنه بذل كل جهده لإخفاء خوفه، وهزّ رأسه موافقًا، فتابع الثعلب:

- هل تعرفني؟

نطق همام بصوت خافت:

- لا.. لا أعرفك سيدي.

- ممم.. أنا «المحتال» (Trickster)..

ثم هبط على قوائمه الأربعة، وأكمل:

- يسمونني في لغتهم القديمة: ويساكيدجاك (Wisakedjak).

بدأ همام يستعيد هدوءه، وقال:

- أهلًا بك.. تشرفت بقدومك.

وقبل أن يتمّ همام جملته الأخيرة، شعّ ضوء ذهبي من صدره على صورة النجمة الخماسية، وكان قويًا بحيث يُرى من فوق قميصه. أنعم الثعلب النظر في الرمز حتى انطفأ، فابتسم وقال:

- هذا جيد.. يبدو أن لديك روحًا حارسة!

شعر همام بالألفة، وتجرأ على الحديث:

- نعم.. نعم.. إنه حكيم عظيم.. ولكن...

أقعى الثعلب على مؤخرته، وأبدى اهتمامه بالاستماع، ولما رأى همام مرتبكًا شجّعه على المواصلة، فتابع همام:

- ولكن يا سيدي.. أنا متشوق لتلقي المزيد من الحكمة، لا بد أن لديك الكثير من الأسرار.

ابتسم الثعلب، وأبدى موافقته على ما سمع، ثم طلب من همام أن ينظر للأعلى. رفع همام رأسه لينظر في السماء، فتشكّلت على الفور رموز سحرية مضيئة، وكانت مطابقة للرموز التي رآها تحت جذور شجرة في عالم الشلال. طلب منه الثعلب أن يحفظ شكلها جيدًا، وأن يحتفظ برسم لها في جيبه أينما ذهب كي تحفظه من كل سوء، وتفتح له أبواب السداد والحكمة.

هزّ همام رأسه، وأكّد أنه سيفعل، ثم تجرأ على السؤال بصيغة توسّل:

- ألن تكشف لي المزيد من الأسرار سيدي؟

ابتسم الثعلب وقال:

- في الوقت المناسب يا صديقي..

ثم نظر الثعلب من حوله إلى حدود الدائرة وكأنه يتفقدها، وشخص ببصره إلى أغصان الشجرة، وأخذ يتفحصها مبتسمًا. وقبل أن يردّ همام، خفض الثعلب رأسه إلى الأرض، وظهر عمود الدخان ليختفي الثعلب في لمح البصر وهو يردد:

- إلى اللقاء.

كان قلب همام قد سكنَ وذهب عنه الخوف، وتجدّد نشاطه حتى نسي ما

كان فيه من جوع وعطش وإعياء. ظل يفكّر فيما رأى وسمع، ويقلب الأفكار والذكريات في رأسه، ثم قرّر أن يسارع للمغادرة قبل أن يعمّ الظلام.

لم يكن همام يقوى على حمل فراشه، ولم يفكّر في شيء سوى الوصول إلى بيت الشامان لكسر صيامه. استنفد آخر ما بقي في جسمه من طاقة حتى يسرع في المسير، وما إن وصل إلى الساحة المؤدية إلى المنزل حتى سارعت جوانا إليه حاملة كأس ماء بارد، فتجرّع ما فيه دفعة واحدة، ثم اتكأ عليها ليصعد على درجات الشرفة ويرتمي على أقرب مقعد. وخلال ثوان، وضعت جوانا في يده طبقًا فسارع لالتهام ما فيه قبل أن يدرك ما هو.

وقفت جوانا تراقبه بشفقة، ولم ترغب في إزعاجه بالأسئلة. انتظرته حتى أنهى الأكل، ثم شجّعتْه على القيام كي يستحم ويرتدي ملابس نظيفة.

في صباح اليوم التالي، نهض همام من فراشه في وقت الضحى، وتطلّب الأمر بعض الوقت حتى يستوعب أنه كان يبيت تحت سقف آمن. توجّه فورًا إلى المطبخ، ووجد إفطاره بانتظاره، تناول شريحة خبز محمص مدهونة بزبدة الفستق، وتجرّع كأس حليب عضوي جلبته جوانا للتوّ من حظيرة تقع خلف المنزل، وشعر لوهلة أنه يعيش في رفاه ملكيّ.

خرج إلى الشرفة مرتديًا سرواله القصير فقط، ووجد جوانا تنشر الغسيل على حبل هناك. نظرت إليه وابتسمت، وأخفت شعورها بالشفقة بعدما رأت جسده يزداد نحافة وضعفًا، وجاملته بالثناء على شعره الطويل الذي يزيده

وسامة، فشكرها مع ابتسامة خجولة.

قعد همام على المقعد ليستمتع بالجلسة التي اشتاق لها، وبادرت جوانا بالحديث:

- الشامان سعيد جدًا من أجلك يا بني.. لقد ذهب إلى الغابة كي يشكر الآلهة على ما قدمتْه لك.. تهانينا.

نظر لها همام مندهشًا، وشكرها، ثم سأل:

- ولكني لم أخبر أحدًا بما حدث معي بعد!

ضحكت جوانا، وقالت:

- هل تظن أن الشامان سينتظرك حتى تخبره؟ إنه يعرف كل شيء.

ابتسم همام ابتسامة مجاملة، والتفت للنظر إلى أشجار الغابة، بينما تابعت جوانا مع ابتسامة عريضة:

- ويساكيدجاك لا يظهر لأحد إلا نادرًا.. إنه أحد «المحتالين» الذين أوكل لهم «الروح العظيمة»[1] بعض مهام الخلق وتعليم البشرية، لا بد أن الأرواح راضية عنك كثيرًا.

ابتهج همام بسماع هذه التفاصيل الجديدة، وسأل مندهشًا:

- حقًا؟!.. هل تقصدين أن معلّم البشرية هو الذي زارني شخصيًا؟

هزت جوانا رأسها وأبدت سعادتها البالغة بهذا الإنجاز، وأخذ همام يسألها عما تعرفه عن أساطير الخلق وقصص «المحتالين»، وهي تشرح له أن «المحتال»

(١) "الروح العظيمة" هو الإله الأعلى حسب معتقدات الشعوب الأمريكية الأصلية.

اكتسب هذه الصفة لأنه يخوض مغامرات مضحكة ومسلّية، ويتمتع بحس الدعابة، لكنه يلجأ للاحتيال أحيانًا كي يحقق بعض أهدافه ومصالحه، وهو أمر أخلاقي في ثقافتهم بعكس ما يعتقده أولئك الأوروبيون الذين يريدون فرض أخلاقهم المسيحية على العالم!

أخبرته جوانا أيضًا أنه لا أحد يعرف هيئة ويساكيدجاك الحقيقية، فهو يتشكل على الصورة التي يريدها كل مرة، فذكر لها همام أنه رآه في صورة بومة وثعلب، وعلّقت جوانا بأن بعض الحكايات التي سمعتها من جدتها كانت تتحدث عن تشكله في هذه الصور بالفعل، إضافة إلى صورٍ حيوانية أخرى عديدة.

قاوم همام بعض الشكوك العفوية التي ساورته وهو يستمع لجوانا، وشعر لوهلة بأن الأمر سخيف برمّته، لكنه ذكّر نفسه بأنه رأى ويساكيدجاك وسمع حديثه بنفسه، وأن تجربته معه أكثر إعجازًا من كل أحلامه وتجاربه السابقة.

أنهت جوانا مهمة نشر الغسيل، وقالت وهي تعود إلى داخل المنزل:

- سأبدأ تحضير الغداء الآن. يجب أن تأكل اليوم عن كل تلك الأيام الصعبة.

ابتسم همام وشكرها، وعاد للتفكير في حصيلة تجاربه.

انقضى أسبوعان آخران في ضيافة الشامان وزوجته، تفاءل فيهما همام بالتتلمذ على يد ويساكيدجاك وتلقي الأسرار التي يحلم بها، لكنه لم يظهر له إلا مرة إضافية واحدة، وكان ظهورًا عابرًا في الحلم وهو نائم، ولم يحصل منه على شيء، أما الشامان فلم يعد لديه ما يقدّمه.

أدرك همام أن الرحلة بلغت غايتها، مع نفاد المال الذي كان معه. اتصل بصديقه كيتشي وطالبه بالقدوم ليعيده إلى تورونتو، وفي ظهيرة اليوم التالي وصل كيتشي بسيارته، وسارع لاحتضان صديقه بحرارة.

نظر كيتشي إلى جسد همام النحيل، وهو يقبض على كتفيه بيديه الكبيرتين، وقال بأسلوبه المرح:

- كنت أتوقع أنك ستكتسب عشرة كيلوغرامات! ما بك يا رجل؟ ألم يعجبك طبخ جوانا؟

تصنّع همام ضحكة مجاملة، وأثنى على كرم مضيفيه، مؤكدًا أن نحافته ليست إلا نتيجة طبيعية لتجربته الروحية.

أصرت جوانا على دعوة الصديقين لتناول الغداء قبل رحيلهما، ثم ودّعت همامَ بحرارة قبل أن يركب السيارة، وأخذت توصيه بأن يعتني بصحّته جيدًا.

قعد كيتشي خلف المقود، وقال بصوته العالي وهو يضرب كتف همام بجانبه:

- لقد أصبح واحدًا منا.. لا بد أن يزوركم باستمرار.

ضحك الشامان وجوانا وهما يقفان بجانب السيارة، وقال الشامان:

- أهلًا به دائمًا.

انطلقت السيارة تشق طريقها وسط الغابة، وأبدى كيتشي إعجابه بمظهر صديقه بعدما طال شعر رأسه ولحيته، لكن همام كان يتفاعل ببرود، وهو يتأمل في الطريق من النافذة عن يمينه.

واصل كيتشي القيادة بصمت، وبعد نحو ساعة أوقف السيارة عند محطة وقود. ترجّل الصديقان قبالة السيارة، وبينما كان كيتشي يملأ خزان الوقود

نظر إلى همام وبادر بالحديث:

- إذن، شهران كاملان في ضيافة الشامان يا صديقي؟!.. لقد فاجأتني فعلًا!

تنهّد همام، وقال بهدوء مع ابتسامة باردة:

- يبدو أنه لا فائدة من أي شيء!

اندهش كيتشي، وصاح:

- ماذا؟! بعد كل هذه المدة!

رفع همام كتفيه، وقال:

- لا أريد أن أكون متشائمًا، ولكن...

أشاح بنظره بعيدًا، وأكمل:

- لا جديد يا صديقي.. التعاليم نفسها.. الطقوس نفسها.. الأرواح نفسها.. أينما ذهبت!

- لكنك أخبرتني على الهاتف أنك رأيت معجزة!

- نعم، هذا صحيح، ولكن لا شيء جديد. كل ما أجده هو تنويع سطحي للتفاصيل، ربما تتغير الأسماء والأشكال والقصص، لكني ما زلت أقف حيث أنا، لم أرتقِ، لم أتعلم أسرارًا جديدة.

هز كيتشي رأسه مشيرًا إلى أنه فهم المقصود، أعاد خرطوم الوقود إلى المضخة، وركب كلاهما، وبعدما انطلق بالسيارة في الطريق، قال كيتشي بجدّية:

- صديقي، هل تذكر أني أخبرتُك، عندما كنا في هذا الطريق قبل شهرين، أن هناك أسرارًا لا يكشفها الشامانات؟

- لم أنسَ يا صديقي، وأعلم أيضًا إلحاحك على الشامان ليمنحني عناية خاصة، وأشكرك كثيرًا على ذلك.

- لا شكر على واجب! أخبرني إذن ما النتيجة؟

- لا أنكر أنه اعتنى بي مع زوجته كثيرًا، وربما أشركني في كل الطقوس التي يقدّمها للآخرين، وخصّص لي جلسات علاجية أيضًا، لكني فشلت في إقناعه بكشف بعض الأسرار!

هز كيتشي رأسه في حسرة، وقال:

- كنتُ متفائلًا بأن يعطيك بعض المفاتيح على الأقل!

سكت همام قليلًا وهو ينظر إلى الأفق من النافذة، ثم قال:

- بعدما خضتُ تجربة «البحث عن الكشف» في الغابة، بذلتُ جهدًا مضاعفًا لإقناعه بتعليمي بعض الأسرار. كان يصرّ على أني بلغت الحد الذي سأقف عنده، وأن أكتفي بممارسة ما تعلّمتُه لبقية حياتي.

أبدى كيتشي تعاطفه وأسفه، وتابع همام:

- أخبرتْني جوانا في نهاية المطاف أن الأمر مستحيل، فالأسرار لا تُكشف إلا لمن يستحق لقب الشامان، وعندها فقط يتلقى الأسرار من الأرواح مباشرة في أعماق الغابة.

- حسنًا، لقد فهمت.. هل كنت تحلم بأن تصبح شامانًا إذن؟

صمت همام قليلًا، وأجاب بأن هذا لم يكن هدفًا بذاته، بل كان يريد الحصول على المعرفة التي يبلغها الشامانات، وأنه ما كان ليمانع في الانخراط في طريق الشامانية لو كان هذا شرطًا للمعرفة، لكن جوانا أخبرته بأن الأرواح هي التي

تختار الشامان غالبًا، وذلك في سن مبكرة من شبابه، فتَظهر له كثيرًا في أحلامه، وتتسبب له بحالات من الصرع والغيبوبة المتكررة، وقد تُجري على يده بعض الخوارق، لتدفعه أخيرًا إلى القبول بشروطها، فيدخل في مرحلة شاقة من التنسّك والتقرّب والتعبّد، وينخرط في رحلة طويلة من التعلم والتدرب على يد شامان مخضرم، حتى ينال في النهاية لقب الشامان ويتلقى الأسرار والمعرفة، ولا بد له بعد ذلك أن يتابع حياته كلها في القيام بالمهامّ الروحية والعلاجية الخاصة بقبيلته، ويظل حلقة الوصل بين أفراد القبيلة وعالم الأرواح حتى يفارق الحياة.

أبدى كيتشي اهتمامه بما سمعه للتو، ولم يُخفِ جهله ببعض هذه التفاصيل، وأبدى شعوره بالأسى من أجل صديقه الذي وصل إلى طريق مسدود، وسأله عن خطوته التالية. فكّر همام طويلًا قبل أن يجيب، وأطلق ضحكة ساخرة وهو ينظر للأفق البعيد، وقال:

- لا أدري.. حقًا لا أدري.. أشعر أني لم أعد أبالي بشيء!

قرر كيتشي أن يلطّف الجو، وقال ممازحًا:

- إذن سترافقني إلى الحانة لنشرب الليلة، وهناك ستنسى كل شيء!

نظر إليه همام مبتسمًا، وعلّق:

- يبدو أنك مصرّ على هدم كل ما بنيتُه في عالم الأرواح بسهرة واحدة.

أطلق كيتشي ضحكة صاخبة، ثم نكز همامَ بيده وهو يسأله عن تجربته مع مخدّر الآيوواسكا، وأخذ يحدّثه عن تجاربه مع مخدّرات أخرى شائعة بين الشباب، وظل الصديقان يتجاذبان أطراف النقاش حتى وصلا إلى تورونتو.

الفصل الرابع

بحلول شهر أكتوبر، تزدان مدينة تورونتو بألوان الخريف الدافئة، وتتحول في عين الناظر إلى لوحة فسيفساء مرصّعة بالأحمر وتدرجّاته، ثم تفترش الأرضَ أوراقُ شجر القيقب الصفراء والبرتقالية في مشهد سوريالي حالم.

اعتاد همام على السير مسافات طويلة في الشوارع والحدائق، مستمتعًا بطقطقة أوراق القيقب اليابسة وهي تتهشم تحت قدميه. وقد يستريح أحيانًا على مقعده المفضل في الحديقة المجاورة لمراقبة المارة، أو ليلعق كأسًا من المثلّجات «الآيسكريم» كما يفعل الكثير من سكان المدينة حتى في الأيام الباردة.

قد يبدو أنه عاد لنمط حياته المعتاد، لكن عادة جديدة اكتسبها في الأسابيع الأخيرة، وهي ارتياد حانات الشرب والسهر.

في ليلة خريفية ماطرة، دخل كيتشي الحانة التي واعد فيها همام في بداية الصيف، وفوجئ بصديقه جالسًا عند المشرَب، وبين يديه كأس جعة ضخم وقد شارف على النفاد.

كان المشهد صادمًا بكل ما فيه، فهمام يزداد نحافة فوق نحافته، وطول الشعر في رأسه ولحيته وشاربه أصبح لافتًا، وهاهو يعاقر الخمر بوجه بائس خالٍ من الملامح. تأمل كيتشي وجه صديقه من بعيد لبرهة، ثم اندفع نحوه بخليط من الشوق والشفقة والفضول. وضع يده على ظهر همام، وقعد بجانبه، وبعد التحية سأله عن أخباره وعن سبب وجوده في هذا المكان.

كان استقبال همام لصديقه باردًا، فقال كيتشي:

- منذ شهر وأنا أحاول الاتصال بك.. لماذا لا ترد يا صديقي؟! هل أنت بخير؟

شرب همام من الكأس، ثم أجاب ببرود متجنبًا النظر في عيني صديقه:

- نعم.. ربما.. لا أدري!

- هل عُدت للشرب؟ ما الذي يحدث معك؟

شرب همام ما تبقى في كأسه، ثم وضعه على الطاولة وطأطأ رأسه بصمت. تابع كيتشي:

- كنت أتوقع أنك ستعود من صحبة الشامان على هيئة بوذا.. أمرك عجيب يا رجل!

أخبر همام صديقه بأنه ليس على ما يرام، وتعذّر بحاجته للراحة والنوم، وقال وهو ينهض مترنّحًا إنه سيخبره بكل شيء لاحقًا، ثم غادر وسط نوبة سعال حادة، بينما اكتفى كيتشي بالمراقبة بحسرة وصمت.

كانت الحانة على بعد شارعين من مسكن همام، فعاد سيرًا على قدميه وهو يمشي الهوينى تحت المطر. وبينما كان يقطع الشارع عند إشارة مرور، لفتت نظرَه لوحةُ إعلان عند مدخل أحد المباني، وكأنه رأى شيئًا مألوفًا، اقترب من اللوحة المعلقة ليتفحّصها، فتعرّف فورًا على صورة الشاب الذي صادف أحدَ دروسه على مواقع التواصل عندما كان جالسًا في شرفة الشامان، وأخذ يقرأ الإعلان بصوت مسموع:

- سيقدّم الدكتور المختص في مقارنة الأديان فراس الفارس غدًا محاضرة بعد صلاة المغرب في المسجد...

رفع همام رأسه وهو يترنّح، ونظر للمبنى متفحّصًا، إذ يبدو عقارًا تجاريًا حوّله أصحابه إلى مسجد من غير مئذنة. ثم سأل نفسه:

- منذ متى كان لدينا مسجد هنا؟!

تابع همام قراءة الإعلان:

- بعنوان «التأمل والشياطين»...

أطلق همام ضحكة ساخرة، وقال:

- الشياطين؟!

تابع طريقه مترنحًا، وهو يُناوب بين الضحك والسعال. وعندما دخل غرفته استلقى على فراشه مسرعًا، ثم انفجر باكيًا كطفل صغير.

قبيل غروب الشمس في اليوم التالي، لم يكن همام يتأمّل على أريكته، بل كان واقفًا هذه المرة على الرصيف المقابل للمسجد، واضعًا يديه في جيبي سترته، ويتأمل المصلّين وهم يخلعون أحذيتهم قبل الدخول.

تردد همام كثيرًا في الدخول، وهو يصارع الشعور بالخوف من التعرض لأي موقف مُحرج. حاول أن يتذكر متى كانت آخر مرة يدخل فيها مسجدًا، ورجّح أنه لم يفعل ذلك قطّ في حياته.

بعد نحو عشر دقائق من التفكير، تجرّأ أخيرًا على الانضمام لطابور صغير من الرجال ودخل معهم. خلع حذاءه ووضعه على الرف كما فعل الآخرون، تجاوزَ

الموضّأ، واتجه مع الداخلين إلى قاعة الصلاة، وكان صوتُ إقامة الصلاة يتردد في مكبّر الصوت.

قعد همام في مؤخرة المسجد مسندًا ظهره للجدار، ومارس هواية المراقبة بفضول شديد، لا سيما أن مشهد تراصص الصفوف لصلاة الجماعة في مسجد مزدحم يمثّل تجربة جديدة.

كبّر الإمام، وانطلق صوته العذب بتلاوة الفاتحة، ولم تلبث أبواب قلب همام أن تُفتح على مصراعيها مع الآية الأولى، ويصُبّ الإمام في أعماقه فُيوضًا من المشاعر التي لم يختبرها من قبل.

لم تصدح الصفوف بكلمة «آمين» إلا ووجهُ همام قد تملّكه الخشوع، وعيناه تذرفان من غير أن يدرك السبب. تابع الإمام تلاوته الخاشعة، وقلبُ همام يزداد لينًا مع كل كلمة، حتى قرأ: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}.

كبّر الإمام، وهوَت الصفوف للركوع، أما همام فهوى في عالم آخر!

رأى همام سقف المسجد يتلاشى تدريجيًا، وسرعان ما وجد نفسه سابحًا في أمواج من الألوان الزاهية، وثمّة أنوار ذهبية تشعّ من فوق رؤوس المصلّين المصطفّين أمامه وتصعد إلى السماء المفتوحة.

أتبع همام الأنوار الصاعدة ببصره، ورأى فيوضًا من النور تسقط في الاتجاه المعاكس. أخذ يحدّث نفسه في ذهول:

«هذا.. هذا أكبر من أي شلال رأيته في حياتي!».

ظل مشهد تدفق الأنوار صعودًا وهبوطًا يتكرر طوال وقت الصلاة، وتتدرج ألوانه مع كل حركة يأتي بها المصلّون، وهمام ذاهلٌ عن العالم المحسوس، إلى أن أتمّ الإمام صلاته قائلًا:

- السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله.

انتبه همام من نشوته المفاجِئة، وعاد كل شيء حوله إلى طبيعته. مسحَ الدموع التي ملأت وجهه، وقاوم رغبته الشديدة في مواصلة البكاء اللذيذ، وظل يتفكّر في معنى تلك الرؤيا العجيبة، وفي شعور الراحة الذي تركته في قلبه.

كان همام مهتمًّا بسماع المحاضرة فقط، وبدافع الفضول لا التعلّم، ولم يكن حضورُ الصلاة نفسها ضمن خطّته، ولم يخطر على باله أنه سيخوض تجربة روحية في ذلك اليوم، وما كان ليصدّق أنه سيخوضها في مسجد أيضًا.

قعد الدكتور فراس على مقعدٍ وراء طاولة عند المحراب، وألقى الإمام مقدّمة تعريفيّة بالمُحاضر وبنشاطه الأكاديمي والبحثي في مجال الأديان القديمة، ثم بدأ الدكتور فراس حديثه، مستهلًا بالتأكيد على أن اليوغا ليست مجرد ممارسة رياضية أو نفسية، بل هي طقوس دينية لا تنفكّ عن أصلها الهندوسي، ولا يكتمل تطبيقها العمليّ إلا بالاستناد على جانبها العقديّ.

كان همام مطّلعًا على كل ما قاله فراس من حقائق دينية، وكان موافِقًا عليه ومعتقِدًا به. ثم شرع الدكتور فراس في إعمال مشارط النقد بمنطقه الديني الإسلامي، موضحًا أن هناك أصلًا شيطانيًا لكل العقائد الوثنية القديمة، وأنه الأصل نفسه الذي انبثقت عنه الفلسفات الباطنية الغنوصية، والتي تتداخل أيضًا مع طقوس ومعتقدات الجمعيات السرية.

بدا جزءٌ من هذا الطرح مُقنِعًا لهمام أيضًا، ولكن بحذر. فكل ما قاله الدكتور

عن الأديان الوثنية والفلسفات الباطنية يبدو مقبولًا، لكن مجرد الإشارة للشياطين كان سيبدو أمرًا سخيفًا لدى همام لو لا التجربة الروحية المفاجئة التي مرّ بها قبل المحاضرة، والتي جرّدته من كل أسلحته، وأسلمتْه للمُحاضِر كي يستمع بعقل منفتح بدون شروط مسبقة.

ختم الدكتور فراس حديثه بقصص قال إنه كان شاهدًا عليها، أو يعرف أبطالها، وهم أشخاص انخرطوا في ممارسات التأمل وطقوس العلاج بالطاقة، واكتشفوا في النهاية أنهم كانوا ضحايا لتلاعب شياطين الجن، وحذّر الحضور من خوض هذه التجارب حتى من باب الفضول، مؤكدًا أنها تقود أصحابها في النهاية إلى مصير كارثي.

خرج همام مع انتهاء المحاضرة، وأقيمت صلاة العشاء في المسجد، ثم بدأ المصلّون بالخروج. كان همام ينتظر واقفًا على الرصيف المقابل، وبعد طول انتظار خرج الدكتور فراس بصُحبة الإمام. اتجه همام نحوه وبادره بالتحية قائلًا:

- يا شيخ فراس، مساء الخير.

ابتسم فراس، وردّ التحية، نافيًا عن نفسه صفة الشيخ، فقال همام مبتسمًا:

- إذن مساء الخير يا دكتور.

- أفضّل أن تناديني باسمي مجردًا، أنا أخوك فراس، وحضرتك؟

- تشرفتُ بك، وأنا أخوك همام.. هل يمكن أن أحدّثك على انفراد لأمر مهم؟

- بالتأكيد، لدي نصف ساعة الآن.

اقترح همام أن يتّجها إلى مقعده المفضل في الحديقة المجاورة، وخلال سيرهما

قدّم همام نفسه بصفته مهتمًّا بموضوع المحاضرة، وممارسًا قديمًا لما ذُكر فيها من طقوس وعبادات. كان فراس يستمع باهتمام، وهو يظن أنه سيسمع قصة أحد الشباب التائبين عن تجربة سابقة، ليضيفها إلى حصيلة القصص التي اجتمعت لديه.

قعد الشابّان على مقعد الحديقة، وقاوم همام ارتباكه ليقول:

- سأكون صريحًا من البداية.. أنا لستُ مهتمًا بالأديان عمومًا، ولولا الصدفة ما كنت سأحضر محاضرتك.

هز فراس رأسه، وأدرك أنه على وشك اكتشاف تجربة فريدة، وشجّعه على الحديث بارتياح، فتابع همام:

- عندما قررتُ الحضور كنت أتوقع محاضرة وعظية، لكني سمعت تفاصيل جديدة ومن منظور جديد تمامًا.

- حسنًا، هذه بداية جيدة.. أكمل من فضلك.

كان همام مشوّشًا، ويبحث عن كلمات مناسبة، فتابع:

- ربما.. اسمع، أنا لا أتفق معك في أمور كثيرة، ولكن.. لكن أصبح لدي فضول لمعرفة المزيد.. اعذرني.. قد لا تكون أفكاري مرتبة.

- لا بأس. رتّب أفكارك على مهل.. أتعْلم؟ ربما لو حضرتُ محاضرة لك كنتُ سأكتشف تفاصيل جديدة أيضًا، نحن نزداد علمًا كل يوم.

- شكرًا على حسن ظنك.. اسمح لي بهذا السؤال.

- تفضل!

- هل جربت التأمل بنفسك؟ هل خُضتَ مثلًا تجربة الإسقاط النجمي؟ أو تواصلتَ مع كينونات روحية؟

- حسنًا، في بداية العشرينات من عمري، عندما لم يكن هناك علماء إسلاميون مطّلعون على هذه المعتقدات ليحذّرونا منها، كنت فضوليًا مثلك، فقرأتُ بعض مؤلفات الباطنيين الجدد، وحاولتُ تطبيق تمارين التأمل بنفسي. كنت أحلم بالحصول على قدرات خارقة، ولكن لم أنجح، ولم تظهر لي أي مشاهدات عجيبة، ربما لأني لم أستعن وقتها بمدرِّب.

- إذن أنت لم تجرّب عالم الروحانيات بنفسك؟

- بلى، جربتُه وما زلت أجربه.. في العمرة، في الحج، في الصلاة كل يوم. باب الله مفتوح لنا دائمًا، ومن يرتقي في مدارج العبودية والخشوع سيرى الأعاجيب.

أطرق همام رأسه، وصمت برهة وهو يقلّب سيلًا من الأفكار والذكريات، ثم قال:

- هل تعلم؟.. قبل أن أرى إعلان محاضرتك لم أكن مهتمًا بأي شيء.. ثم...

كان همام يزداد ارتباكًا، وفراس يشجعه على الإفصاح بحرية، فتابع:

- لا أدري كيف أقولها لك. كنت أنوي حضور هذه المحاضرة للاطلاع فقط، وربما.. ربما كنتُ أريد أيضًا أن أناقشك لأتحدّاك.. أو.. أو ربما لأثبت لنفسي أني أوشكتُ على بلوغ قمة الاستنارة.. وامتلاك أسرار الحكمة...

ابتسم فراس ولم يعلّق، ونهض همام واقفًا وهو منهمك في الشرح:

- لقد خضتُ تجربةً روحيةً غيرَ متوقعة قبل قليل في هذا المسجد! لا أدري كيف حدث هذا.. كل ما كنتُ أفكر فيه تغيَّرَ في لحظة!

أخذ همام يضحك ساخرًا من نفسه، وقال:

- حقًا لا أدري ما أقول!

نهض فراس ونظر في عيني همام قائلًا:

- اسمعني يا أخ همام، أتوقع أنك بحاجة للراحة الآن حتى تعيد ترتيب أفكارك، أنا سأبقى في هذه المدينة عدة أيام لحضور بعض اللقاءات الأكاديمية والفعاليات الدينية، قبل العودة إلى منزلي في مونتريال، ما رأيك بأن نلتقي غدًا؟

تهلّل وجه همام، وأبدى امتنانه لفراس على تفهّمه ورغبته في الحوار. وبينما كانا يغادران الحديقة، اقترح فراس على صديقه الجديد أن يساعده في اكتشاف بعض معالم تورونتو. فكّر همام قليلًا ثم علّق ممازحًا:

- ربما لا أكون رفيقًا مسلّيًا، ولكن لدي فكرة ستعجبك حتمًا.

في صباح اليوم التالي، استيقظ همام في الساعة العاشرة، ونهض من فراشه بارتياح تام. حمل كأس قهوة كبير، ووقف أمام النافذة لينظر إلى الشارع.

كان يفكّر في أنه لم يحظَ بنوم عميق كهذا اليوم منذ مدة طويلة، ولم يشعر بالسعادة والإقبال على الحياة كما هو حاله الآن.

نظر إلى المسجد عند زاوية الشارع، وقال:

- ما الذي فعلتَه بي يا مسجد؟!

تناول همام إفطارًا خفيفًا، ووجد في نفسه نشاطًا غير معتاد فنظّف غرفته ورتّبها، وفوجئ باستخراج كمية ضخمة من النفايات، وكأنه لم يكن يلاحظ تراكمها في أرجاء غرفته. ثم اغتسل وارتدى ملابس نظيفة، وخرج للقاء فراس بكل حماس.

في حديقة متحف آغا خان بمدينة تورونتو، التقى الصديقان على الموعد. وبينما كان فراس يتأمل بإعجاب في عمارة المتحف وهما يقتربان منه، قال:

- في الحقيقة لم أتوقع أن أجد متحفًا إسلاميًا هنا، وبهذه الفخامة أيضًا!

ابتسم همام، وعلّق:

- مع أني أعيش في هذه المدينة منذ سنوات طويلة لكني لم أزره من قبل. كنت أسمع عنه كثيرًا، ووجدتُها فرصة لنكتشفه معًا.

وصلا إلى مدخل المتحف، ونظر فراس إلى لوحة ضخمة كُتب عليها بالإنجليزية «متحف آغا خان»، فابتسم وقال:

- الآن فهمت.. لا بد أن هذا الصرح مموّل من الآغا خان، زعيم الطائفة الإسماعيلية.

- أذكر أني سمعتُ في الأخبار عن ثروته وحفلاته، وربما مشاركاته في سباقات الخيول الملكية، ولكن لم أفهم ما علاقة هذا بالدين؟

ضحك فراس وقال:

- هذا ما يحيّر أيضًا المتدينين من أمثالي يا عزيزي.

دخل همام وفراس إلى مبنى المتحف، وكانت فخامته كافية لإبهارهما، وأخذا يتجولان بين خزائن العرض الزجاجية لاكتشاف نماذج من منجزات الحضارة الإسلامية، فثمة مخطوطات لكتب كثيرة، وأدوات قديمة للجراحة، ومعدّات للرصد الفلكي وأشكال متعددة من الإسطرلاب، ونماذج لساعات ميكانيكية معقدة، وأوانٍ خزفية بديعة.

واصلا المشي ببطء معًا بين المعروضات، ثم قال همام مندهشًا:

- لا بد أن المسلمين كانوا سادة العالم!

- بالتأكيد.

- للأسف، لا أعرف عن هذا التاريخ شيئًا.

- ألم يخبرك والداك عن تاريخ أمّتك؟

ضحك همام وقال ساخرًا:

- أمّتي؟! لم أسمع هذه الكلمة من قبل! أبي مُهاجر من أصل فلسطيني، وأمي كنديّة بيضاء، وأنا وُلدت في هذا البلد ولا أعرف الكثير عن جذوري، ربما لأنهما انفصلا وأنا طفل في الثامنة.

- يؤسفني ذلك!

مرّ الشابان أمام لوحة كبيرة كُتبت عليها آيات قرآنية بخط الثلث الجميل، فوقفا للتأمل فيها، وقال فراس:

- لكنك تحدثني بلغة عربية جيدة!

ضحك همام وقال:

- ربما لم أرِث من أبي سوى اسمي العربي وإلمامي البسيط بهذه اللغة الجميلة. كان يحدثني بها قبل أن يرحل وينسحب من حياتي، وكنا نعيش في مجتمع عربيّ مصغّر، فاحتفظت بصداقة متينة مع الكثير من الأطفال العرب حتى كبرنا معًا، وكثيرًا ما كنا نشاهد أفلامًا وبرامج عربية عندما أزورهم في منازلهم، لكني لا أعرف الكثير عن هذه الأمّة، ولا عن حضارتها!

- إذن، ألا تشعر بشيء من الانتماء لها؟

- لو عرفتُها ربما كنت سأحبها، وأفتخر بها.

أطرق فراس وهو يفكّر فيما سمع، ثم توقّفا أمام لوحة تمثل باب الكعبة، وقال:

- صحيح، وماذا عن الإسلام؟ هل تربطك به أي علاقة؟

هز همام رأسه نافيًا، ورفع كتفيه وقال:

- للأسف، لا شيء! أبي لم يكن متديّنًا، وأمي التي أكملتْ تربيتي كانت ملحدة. ربما اتفقا على تركي وشأني لأعتقد ما أريد. لا أذكر أني سمعتُ منهما شيئًا عن وجود إله أو اعتناق دين!

ابتسم فراس، ووضع يده على كتف همام قائلًا:

- لا بأس، سأحدثك عنه لاحقًا.

استأنف فراس المشي بين المعروضات، وسار همام بجانبه وقال بحماس:

- أنا روحانيّ بطبعي. ربما انغمستُ قليلًا خلال المراهقة في الحياة المادية، كما يفعل جميع الشباب هنا، ثم نبذتُها في مرحلة الجامعة، لم أجد ضالّتي في الهندوسية والبوذية، مع أني أحببتهما كثيرًا. لكن عالَم الخيمياء والأسرار يستهويني لطلب المزيد...

أبدى فراس اهتمامه، واستدرك همام:

- والآن، أشعر بالملل من كل شيء!

- ولماذا لم تفكر في الإسلام من البداية؟ في التصوف الإسلامي مثلًا؟

- لو سألتني هذا السؤال قبل تجربتي المذهلة في المسجد أمس، ربما كنتُ سأعتبره.. وأرجو أن تسامحني.. سؤالًا سخيفًا.. لكن.. لا أدري.. ما زلتُ مرتبكًا مما حدث معي.. ولا أعرف بمَ أجيبُك!

- لا بد أن المعلّمين والمدرّبين والغوروز[1] الذين تعلمتَ لديهم، أو حتى الكتب التي قرأتَها، كانت كلها تبني تصورًا في غاية السخف عن الإسلام، وحتى المسيحية.

ابتسم همام وهز رأسه موافقًا، وتابع فراس:

- هذه الفلسفات الباطنية لا تعتبر الدين السماوي خرافة فقط، بل مرحلة طفولية لا تليق بالباحثين عن الحكمة السرية.

قال همام مع ضحكة خجولة:

- يبدو أنك تعرف الجواب جيدًا.. هذا صحيح!

---

(١)كلمة غورو ذات أصل سنسكريتي هندوسي، وتستخدم كثيرًا في اللغات الأوروبية اليوم، وجمعها بالإنجليزية Gurus، وهي تطلق على من لديه الحكمة.

دخل الصديقان قاعة أخرى في المتحف، وكان فراس يحرص على إذابة الجليد الذي قد يوجد في بداية أي علاقة، فينتهز أي فرصة لممازحة همام، أو للتعليق الساخر على بعض المعروضات، أو يسترجع بعض تجاربه وذكرياته الخاصة.

أصبح همام أكثر انفتاحًا وانبساطًا، وشعر أنه عثر على صديق جديد يمكن الوثوق به بالرغم من الخلاف الفكري. وبينما كان فراس يتأمل في إحدى المخطوطات المعروضة، قال همام:

- سأصارحك مرة أخرى.. قبل سماع محاضرتك، كنت أظن أنك ستنسف الكثير مما أؤمن به عن عالم الأرواح والطاقة، لكنك قلت إنك تعترف بوجود تلك الظواهر، وعلى الأقل لا تعتبرها خرافة.

التفت فراس إليه وابتسم قائلًا:

- صحيح، أنا أؤمن بوجود الجنة والنار والملائكة وغيبيات كثيرة، حدثَنا عنها الوحي ولم نرها، وعدم معاينتها بالحواس لا ينفي وجودها.

تابع الصديقان سيرهما باتجاه خزانة العرض التالية، وقال همام:

- لكن، هل تذكر نصوصكم المقدسة وجود الطاقة الحيوية، وإمكانية الاندماج معها وشحن الشاكرات بها؟

فكّر فراس قليلًا وهو يتابع السير، ثم أجاب:

- لا، ليس بهذه الصراحة. الوحي حدثَنا عن عالم الجن، وعن وجود علوم خطيرة للتواصل مع شياطينهم والاستعانة بهم، مثل السحر والطلاسم والتنجيم، ثم حذَّرنا بشدّة من تعلُّمِها ولم يفصّل فيها.

توقف فراس ونظر لهمام متابعًا الشرح:

- لذا عندما نرى ممارسات استحضار شياطين الجن، سواء للعلاج أو التعلم أو شحن الطاقة، أو لأي هدف آخر، نعرف أن التفسير الفلسفي لِما يحدث هو خليط من حقائق وخرافات تتراكم منذ آلاف السنين.

فكّر همام فيما سمعه وهو يعبث بلحيته، بينما التفت فراس إلى خزانة العرض بجانبه، وابتسم قائلًا:

- انظر إلى هذا القميص.. يا لها من صدفة!

كانت الخزانة الزجاجية تعرض قميصًا من الكتّان الأبيض الذي اصفرّ بفعل الزمن، وتذكُر بطاقة مثبّتة في طرف الخزانة أنه قميص سحريّ يعود إلى عهد الدولة الصفوية في بلاد فارس بأواخر القرن السابع عشر الميلادي، وكان يلبسه أحد الجنود لحمايته أثناء المعارك.

بدا القميص أشبه بعباءة تصل إلى الركبتين، وقد كُتب عليه بخط صغير الكثير من الآيات القرآنية والأوراد، كما يضم رسومًا هندسية تبدو أقرب للزخرفة.

نظر همام متفحّصًا، وتابع فراس:

- هل تعرف ما هذه الرسوم؟

- نعم، تقريبًا. إنها تشبه الرموز التي أستخدمها في التأمل، وبعضها أراه عندما أحلّق روحيًا في عالم فالهالا.

ابتسم فراس وعلّق:

- أحسنت، هذا العالم هو مشهد يصنعه الجن في عالمهم الموازي عندما تزورهم فيه، أما هذه الرموز فليست سوى طلاسم. إنها مفاتيح التقرب لهم

بالعبادة والتقديس في لغتهم، وهي الضريبة التي تدفعُها يا صديقي كي يفتحوا لك أبوابهم.

قال همام مع نظرة ساخرة:

- أنا لا أؤمن بوجود جن أصلًا، فكيف تقول إني أعبدهم؟!

أجاب فراس على الفور:

- من الأفضل لهم ألا تعلم بوجودهم، وأن تعتقد أنهم أرواح لبشر عاشوا في عصور سابقة، أو كائنات روحية علوية أو سفلية، أو ملائكة، أو آلهة، أو حتى كائنات فضائية متطورة. المهم أن تستعين بهم وتُقدّم لهم الولاء والطاعة، بدلًا من الله تعالى.

فضّل همام الصمت وهو يحكّ لحيته بحركة متوتّرة، وأشار فراس إلى الخزانة طالبًا منه المشاركة في قراءة بعض النصوص المكتوبة على القميص بخط دقيق، وبعد نحو دقيقة من البحث، صاح فراس مبتهجًا وكأنه عثر على كنز، وقال وهو يشير إلى فتحة الصدر:

- تعال يا صديقي، اقرأ معي: يا الله.. يا قدوس.. ثم تأتي الأسماء الغريبة: يا قلماهائيل.. يا سترفيل.. يا لدمائيل.. يا سمسمائيل.. يا أسيراطيل.. يا شرنطيائيل.. إلى آخره.

حدّق همام في النص وحاول بصعوبة اللحاق بقراءة فراس، ثم نظر فراس إليه وقال:

- قد يتوهم القارئ العادي أنها أسماء ملائكة، ولكن الملائكة لا تستجيب لدعاء الناس ولا يمكن استحضارها بأي طريقة. بل تعمل بأمر الله فقط كما يقول القرآن: {وما نتنزل إلا بأمر ربك}.

كان همام يستمع باهتمام لطرحٍ لم يسمع به من قبل، ويحاول مقاومة الصراع العنيف الذي يعتمل داخله، فمع أن الكثير من الشكوك ساورته خلال الشهرين الماضيين، لكن ضرب أسس معتقداته التي آمن بها سنوات طويلة ليس بالأمر السهل.

واصل الصديقان تفحّص القميص، ثم قال همام:

- انظر هنا إلى كُمّ القميص.. يبدو أنه دعاء: «اللهم احفظ هذا من جميع البلاء، بحقّ خاتم سليمان، وبحقّ حملة العرش والكروبيين»!

نظر همام إلى فراس نظرة حيرة واستفهام، بينما كان فراس يتأمل في كمّ القميص، ثم قال وهو يهز رأسه:

- هذا المصطلح الأخير جاء من سفر التكوين، اليهود والمسيحيون يعتقدون أن هناك نوعًا من الملائكة يسمى الكَرُوبيم، وأن إبليس كان منهم، ثم عصى الله وصار مع أتباعه من «الملائكة الساقطين».

رفع فراس رأسه والتفت إلى همام متابعًا الشرح:

- ويبدو أن إبليس وأنصاره من الجن هم الذين أدخلوا هذه الأسطورة للكتاب المقدّس، وبالتعاون مع حلفائه من شياطين الإنس، فجعل نفسه من الملائكة!

هزّ همام رأسه وكأنه يكتشف حلًا للغز، وأكمل فراس:

- وهي نفس الأسطورة التي تجدها في الفلسفات الباطنية.

أشار فراس إلى القميص وهو يتابع حديثه بنظرة أسى:

- حتى الشيعة تسللت إليهم فكرة الملائكة الكروبيين، كما ترى في هذه التمائم التي جاءتنا من الدولة الصفوية الفارسية!

واصل فراس تفحّص القميص، ثم قال مبتسمًا وهو يشير إلى طرفه السفليّ:

- تعال واقرأ يا صديقي.. الأمر واضح جدًا هنا: «أقسمتُ عليكم يا معاشر الجن والإنس والشياطين والعفاريت أن تحضروا...».

ضحك فراس ضحكة ساخرة، وأخذ همام يتأمل بصعوبة، بينما كان النص يتوسّل صراحة بأسماء شياطين الجن بلغة غير مفهومة، وهو يصفهم بكلمة «الخدّام»، ومِن هذه الأسماء: «پرهشية پرقهشية كرير شليه طوران بزجل ترقب پرهش غلمش...».

خرج الصديقان إلى حديقة المتحف مجددًا، وأخذا يسيران ببطء نحو مبنى آخر مجاور للمتحف. كان همام هادئًا للغاية، خافضًا رأسه ومستغرقًا في أفكاره. فضّل فراس أن يلتزم الصمت وينتظر الأسئلة التي يقلّبها صديقه في رأسه. ثم نطق همام قائلًا بصوت خافت:

- لنفترض أني وافقتك على أن الكائنات التي تتواصل معنا وترشدنا ليست من الملائكة، لماذا أنت واثق من أنها جنّ؟ ألم تقل إنك لم تجرب بنفسك؟!

فكّر فراس قليلًا، ثم توقف عن السير والتفت إلى همام ليجيبه بسؤال مضاد:

- أخبرني بصدق.. عندما تدخل إلى عالم فالهالا، هل ترى أحيانًا حصان وحيد القرن (Unicorn)؟

نظر همام إليه بدهشة وأجاب:

- نعم!

- و العرائس الصغيرة اللطيفة (Fairies)؟

- أحيانًا!

- هل رأيت كائنات تشبه التنين أو طائر العنقاء؟

تردّد همام قبل أن يجيب، ونظر لصديقه نظرة متفحّصة، فأصرّ عليه فراس أن يجيبه بصدق، فقال:

- نعم.. كنتُ مخيَّرًا بينهما أيضًا!

- ثم ماذا؟

- اخترتُ التنين، وطار بي!

ابتسم فراس ونظر له مشجّعًا على المواصلة، فقال:

- وما زال يظهر لي ليساعدني.

هز فراس رأسه بابتسامة عريضة، وكأنه حقق هدفًا ثمينًا، بينما كان همام يبتلع ريقه بارتباك. وقال فراس:

- ألن تسألني كيف عرفتُ كل هذا مع أني لم أجرب مثلك؟

لم يمهل فراس صديقه للإجابة، وتابع:

- هذا تقريبًا هو ما يراه كل محترفي الخيمياء والتأمل التجاوزي.

أشار فراس لصديقه بيده كي يتابعا السير، وقال:

- أنتم تبحثون عن هذه الكائنات وتتقرّبون منها، وهي نفس كائنات الأساطير لدى شعوب العالم كله منذ آلاف السنين. قد تختلف بعض التفاصيل

والمسميات، لكن الجوهر واحد في كل زمان ومكان.

قال همام محتدًّا:

- أنا لا أنكر أنه عالم روحاني واحد.. الباحثون عن الحكمة يتّصلون به منذ آلاف السنين، ومن كل أنحاء العالم!

- نعم، وهو نفسه الذي يتصل به السحرة والشامانات، وكهنة البوذية والهندوسية.. ويستخدمون نفس الطلاسم والعزائم والتمائم التي أخبرنا الوحي أنها لعبادة شياطين الجن.

ثم أخذ فراس يشرح بالتفصيل نقاط الالتقاء بين جميع هذه المعتقدات، وكيف تتشابه حالات النشوة والوجْد التي يبلغها الشامانات مع حالات المسّ الشيطاني التي يعرفها السحرة ويعالجُها الرقاة الشرعيّون، بينما كان همام يستحضر في ذاكرته ما رآه على يد الشامان في الغابة، مكتفيًا بالإنصات بصمت.

وبعد خمس دقائق من الشرح المستفيض، وصل الصديقان إلى واجهة المبنى الآخر، ونظر فراس إلى اللوحة المثبتة عليها ليقرأ بصوت عال:

- المركز الإسماعيلي!.. يبدو أننا وصلنا إلى المعبد.. هيا نكتشف!

ما إن ولج الصديقان إلى ردهة المركز حتى سمعا صوت موسيقى صوفيّة تُعزف في أعماقه، كما خطفت أبصارَهما فخامةُ المكان وهندسته البديعة، فالسقف الزجاجي المائل يملأ الردهة بالضوء الطبيعي، والزخارف الإسلامية تمتد على طول الحائط الداخلي بجمال أخّاذ.

رحّبت بهما موظفة الاستقبال، مشيرة إلى أن «الحفل» قد بدأ. شكراها واتجها نحو إحدى القاعات الداخلية بخطىً بطيئة، بينما طرح همام سؤالًا جديدًا:

- بما أنك مسلم، ولا تجرّب ما تعتبره ممارسات شيطانية.. هل جربت التصوف؟

- سؤال وجيه، نعم ولا.

- إذن لديك تفصيل!

- حسنًا، التصوف له عدة وجوه. في حده الأدنى والمتفق عليه بين الجميع هو الزهد في الدنيا، ومجاهدة النفس، والتقرب إلى الله بالعبادات. قد يرتقي المسلم بهذا إلى مراتب الأبرار والمقرّبين، فتكون له أحوال خاصة من الخشوع. قد يتلقى إلهامًا يخصّه وحده، ويرى في منامه رؤىً صادقة من عالم الغيب، ولكن ليس فيما يتلقاه مخالفة ولا إضافة للشريعة المعروفة للجميع.

هز همام رأسه باهتمام، وتابع فراس:

- إلى هذا الحد يبقى التصوف مقبولًا، لكن الواقع مليء بالتجاوزات.

- كيف؟

- تزكية النفس تحولت إلى مناهج ومدارس، ولكل منها طريقة يتزعّمها شيخ، ثم ظهرت مؤسسات وهياكل هرمية، وتغلغلت فيها الفلسفة الباطنية الغنوصية، وهكذا تحول الكشف والعرفان من تجربة شخصية إلى مصدر مستقل للمعرفة، بل أصبح لدى بعض الغُلاة أَولى من الوحي نفسه.

فكّر همام في هذه التفاصيل، ثم قال مبتسمًا:

- هنا يصبح المتصوف أقرب إلينا منكم!

هز فراس رأسه موافقًا، وقال:

- والجنوح في عالم الأرواح قد لا ينتهي عند حدّ!

وصل فراس وهمام إلى مدخل القاعة، ووقفا يراقبان بصمت، كانت القاعة مجهّزة بمسرح خشبي، وعليه فرقة من أربعة راقصين يرتدون ملابس فضفاضة حمراء وبيضاء، وعلى رؤوسهم طرابيش طويلة، ويدور كل واحد منهم حول نفسه تاركًا ملابسه تشكّل حلقة ترفرف في الهواء. وفي صدر المسرح عازف على العود، وآخر ينفخ في الناي، بينما يغنّي شخص ثالث باللغة التركية. أما جمهور المشاهدين فكانت ملامح معظمهم تشير إلى أنهم من الكنديين البيض وغير المسلمين.

تساءل همام مندهشًا عما يراه، فأجاب فراس:

- هؤلاء الدراويش، يؤدّون رقصة المولويّة.

- لم أفهم شيئًا!

ضحك فراس، وقرّب فمه من أذن همام كي يسمعه وسط الموسيقى الصاخبة:

- هذه من طقوس الجماعة الصوفية المنتسبة إلى جلال الدين الرومي في تركيا، ولها معجبون وأتباع في أنحاء العالم.

هز همام رأسه مبديًا اهتمامه، وأنهى الراقصون أداءهم بعد بضع دقائق وسط تصفيق حادّ. خرج الصديقان من القاعة بينما كانت الفرقة تستعد لأداء فقرة أخرى، وأخذ فراس يشرح لهمام فلسفة هذه الرقصة، حيث يعتقد أصحابها أنها مقتبسَة من الطواف حول الكعبة، ومن دوران الكواكب حول النجوم، وأنها تساعدهم على بلوغ حالة روحية خاصة.

لم تكن هذه الفلسفة غريبة على همام، فقال مضيفًا على شرح فراس:

- أظن أنهم يرون فيها وسيلة لتجريد الحواس مع ترتيل الصلوات الدينية، والهدف هو تحقيق النشوة في النهاية.

- نعم، وكما يعتقد ممارس اليوغا مثلًا أنه يتّحد مع المطلق الكوني، قد يعتقد الصوفيّ أنه يبلغ درجة الفناء، وربما حتى الاتحاد مع الله! وهذا اعتقاد يُخرجه عن ملة الإسلام.

سار فراس وهمام في ردهة المركز للتفرّج على بعض اللوحات والمقتنيات المعروضة، وقال همام:

- بالمناسبة، هذا لا يختلف كثيرًا عن رقصات روحانية لدى شعوب أخرى.

- نعم، وتحوّل الأمر لدينا إلى حفلات استعراضية لا يبدو أن لها علاقة بتزكية النفس، كما رأيت قبل قليل!

- هل هؤلاء من الطائفة الإسماعيلية إذن؟

هز فراس رأسه نافيًا، وابتسم وهو يقول:

- الطريف أن المولوية محسوبون على السنة، والإسماعيلية منشقون عن الشيعة. ربما يجمعهما هذا الهوى الصوفي الباطني!

وصل الصديقان أثناء سيرهما إلى مدخل قاعة أخرى، كانت أكبر حجمًا، وهي مفروشة بسجادة فاخرة، ولم يكن فيها أحد. قال فراس وهو ينظر للقاعة الفارغة:

- أعتقد أنه من الصعب مشاهدة طقوس الصلاة الإسماعيلية في هذا المركز، فهي خاصّة وليست للجمهور، لذا لن نشهد لهم صلاة هنا.

- وماذا فيها؟

- هي لا تشبه صلاة المسلمين السنّة ولا الشيعة، فيكتفون بالجلوس في أطراف القاعة ويقرؤون معًا الدعاء، بلا وضوء ولا ركوع ولا سجود.

- هذا يبدو غريبًا بالفعل.

- والأغرب أن تُفرض على أعضاء الطائفة ضريبة الخُمس، ويذهب نصفها إلى قائدها الروحي الذي يعيش كالملوك في أوربا، ومنصبه وراثي أيضًا.

تابع الصديقان سيرهما في الردهة، وقال همام:

- صحيح، الصحافة تركز كثيرًا على حياته المترفة وعلاقاته بزعماء العالم.

ابتسم فراس ابتسامة ساخرة، وقال:

- ولا أظن أن هذا هو شكل الدين الذي يمكن إقناعك به.

ضحك همام وقال:

- نعم.. طبعًا.

ثم شعر همام بالارتباك، وقال مستدركًا:

- عفوًا.. يبدو أن هناك سوء فهم!

نظر له فراس رافعًا حاجبيه مع ابتسامة خفيفة، وتابع همام قائلًا:

- أنا لا أقصد من حواراتنا أني أريد اعتناق أي دين...

أطلق فراس ضحكة خفيفة، وقال ممازحًا:

- وأنا لا أقوم بعملية غسيل دماغ هنا!

ازداد ارتباك همام ولم يجد ردًا، فتوقف فراس وربّت على كتفه وهو يقول:

- عزيزي.. نحن نتبادل الأفكار والمعرفة حتى الآن، وإذا دعوتك لاعتناق دين لا يُقنعك فيمكنك رفض الدعوة بكل بساطة.

شعر همام بالارتياح، وقال مع ابتسامة خجولة:

- حسنًا.. حسنًا.

التفت فراس إلى بوابة المركز، وقال:

- لنعد إلى المتحف.. لم أنس بعد الرائحة الزكية من المطعم الشرقي هناك.

اتجها معًا للخروج بخطى سريعة، وقال همام:

- فكرة جميلة.. أرجو أن نجد لديهم فلافل.

ضحك فراس وقال:

- دائمًا الروحانيون نباتيون!

استمتع الصديقان بوجبة شهية في المطعم الفاخر، وتبادلا الكثير من النكات والقصص المسلية. كان همام قد بدأ بالتعافي من حالة الاكتئاب التي عاشها في الشهرين الماضيين، مع أن جسده يزداد هزالًا وضعفًا.

لم يكن هذا سوى اليوم الثاني الذي يلتقي فيه همام مع فراس، لكن الناظر إليهما سيخمّن أنهما صديقان حميمان منذ الطفولة، وكأن علاقة روحية نشأت بينهما بدون مقدّمات.

كان همام سعيدًا بعثوره على صديق يثق به في أحلك الظروف، لكنه يحاول إخفاء مشاعره خشية أن يبدو أمامه كطفل صغير. وكان فراس يخفي بدوره

سعادته بالتغيير الذي يصنعه في حياة شاب تائه، ويدعو الله في سرّه أن يعينه على إتمام مهمّة الهداية. لكن هذا التقارُب لم يكن يعجب كائنًا واحدًا يراقب عن قرب، وهو يرى ولا يُرى!

لم يشعر همام بوجود «الحكيم» معهما، ولم يخطر على باله أن صديقه الكامن في عالم الأرواح كان يخطّط لأمر خطير!

الفصل الخامس

بعد يوم حافل بالنقاش والاكتشاف، عاد همام إلى غرفته في المساء، بينما انصرف فراس إلى جدول أعماله المزدحم بالاجتماعات واللقاءات، ثم عاد في الليل إلى الفندق متعبًا. تناول وجبة خفيفة وهو يستمتع بإطلالة على المدينة من شرفة غرفته، ثم ارتأى أن يترك شقًّا صغيرًا في باب الشرفة ليحظى ببعض التهوية، وتدثّر بلحاف سميك قبل أن يغطّ في نوم عميق.

لم يشعر فراس بأنه كان تحت المراقبة في كل خطوة، وأن كائنًا خفيًا كان يشاركه الجلوس في الشرفة أثناء تناول العشاء، وما إن اطمأن إلى أن فراس قد نام حتى تسلل إلى الغرفة.

كان الحكيم قد تأبّط شرًا، لكنه فوجئ بجنّي آخر متكوّراً على نفسه في زاوية الغرفة. كان قزمًا صغيرًا، وما إن رأى القزمُ الحكيمَ العملاق يملأ الغرفة حتى نهض مؤديًا له التحية بيده الشمال، ورافعًا إصبعيه السبابة والخنصر.

لم تكن الهيئة التي يراها القزم للحكيم هي نفس الهيئة التي يراه بها همام، إذ لم يكن رجلًا عجوزًا بلحية وملابس بيضاء، بل هو مارد أسود اللون، عيناه حمراوان، ووجهه بارد بلا ملامح. وكان جسده الهائل يملأ الغرفة، ما اضطره للجثوّ على ركبتيه وإحناء ظهره وخفض رأسه الملامس للسقف.

مدّ المارد يده ولمس بإصبعه الضخم رأس القزم الواقف بلا حراك، وبدأ التخاطر بين الجنّيين. سأل المارِدُ القزم:

- هل أنت قرين هذا المحمّدي؟

- نعم سيدي.. نعم!

نظر المارد إلى فراس النائم بعينين تقدحان شرراً، وسأل القزمَ بالتخاطر:

- وهل تقضي ليلتك هكذا كل ليلة؟!

أجاب القزم بالتخاطر مع ابتسامة خبيثة:

- نعم سيدي.. هو لا ينسى آية الكرسي والأذكار، لذا أبقى بعيدًا، ولو لم ينسَ أذكاره عند دخول الغرفة هذه الليلة كنت سأبيت في الخارج كالعادة.

عبس وجه المارد، ورفع يده عن رأس القزم، ثم مدّها نحو فراس ببطء وحذر، وقبل أن تصل إليه بنصف متر اصطدم إصبع المارد بقُبّة خفيّة.

التمعت القبّة ككرة زجاجية مضيئة تحيط بفراس من كل الجهات، وارتدّت يد المارد بحركة انعكاسية لاإرادية وكأنه أصيب بصعقة كهرباء. تأوّه المارد بصوت خافت وهو ينظر لإصبعه، بينما التزم القزم بالصمت.

تملّك المارد الغضب، وانقدح بعض اللهب في رأسه. ثم نظر إلى فراس بعينيه الحمراوين، وقال بصوت عميق أقرب إلى الصفير ولا يسمعه البشر:

- أيها المحمدي.. لولاها لملأتُ ليلك بالكوابيس حتى تفقد عقلك.

فزع القزم من غضب المارد، فألصق ظهره بالجدار وتكوّر على نفسه، بينما انطلق المارد كالريح متسللًا من شق الباب نحو السماء.

تقلّب فراس في فراشه، والقزم يراقبه من مكانه. ثم شعر فراس بالبرد، فنهض إلى باب الشرفة وأغلقه بإحكام، وهو يهمس:

- لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم اغفر لي.

سدّ القزم أذنيه كي لا يسمع تلك الكلمات، ثم قفز إلى الحمّام ليختبئ فيه، وعاد فراس إلى فراشه ليغطّ في نوم عميق.

في صباح اليوم التالي، تجدد اللقاء بين الصديقين الجديدين، وعلى نفس المقعد المفضّل في الحديقة. تناول كل منهما قطعة كبيرة من المثلّجات بالرغم من الطقس البارد. وخلال أربعين دقيقة من الإنصات، تعرّف فراس على القصة الكاملة لهمام، ثم علّق فراس مبتسمًا:

- تبدو قصةً مناسبةً لرواية من العيار الثقيل!.. ما رأيك أن تبيعها؟

ابتسم همام وقال على الفور:

- لننتظر النهاية، ونرى إن كانت تستحق.

ضحك فراس، وقال بجدّية:

- ستكون نهاية طيبة.. بإذن الله.

هز همام رأسه، وتابع فراس:

- إذن، تحدّيت نفسك من جديد عندما كُنتَ في ضيافة الشامان، وكلُّ ما حصلتَ عليه هو تكرارٌ لتمارين التنظيف وشحن الطاقة واسترضاء الأرواح!

تنهّد همام بعمق، وكأنه ينفث حملًا كبيرًا عن صدره، وأطرق رأسه بصمت، بينما واصل فراس حديثه:

- وعندما لم يجد الشامان شيئًا جديدًا يقدمه لك، قرر أن يُدخلك في تجربة «طقوس العبور» التي يخوضها الغلمان عند بلوغهم في العادة!

- ربما!

- ومع أنه يعلم أن لديك «روحًا حارسة»، لكنه شجّعك على التجربة، وكلُّ ما حصلتَ عليه بعد تلك التجربة الشاقة هو زيارة من روحٍ جديدة!

رفع همام كفّيه وقال بحسرة:

- نعم!

- لا ألومك على السقوط في فخ الاكتئاب بعد كل هذا.

اكتفى همام بالصمت، وتابع فراس:

- الحكيم لم يزُرك أثناء إقامتك لدى الشامان إلا نادرًا، لأنه يتجنب المخاطرة بدخول تلك الغابة التي يسيطر عليها مردة وعفاريت آخرون.. لم يجرؤ على اقتحام مملكتهم!

رفع همام رأسه ونظر بعيدًا، وظل عاجزًا عن النطق، بينما واصل فراس حديثه بحزم:

- أخي همام، أجبني بصدق، ألم تبذل كل تلك الجهود المضنية من أجل اكتشاف الحقيقة؟

ردّ همام بصوت خافت وكأنه يختنق:

- نعم.. طبعًا.

قال فراس بلهجة صدق وشفقة:

- إذن استقبل الحقيقة بشجاعة.

شعر همام بغصّة في حلقه، وقاوم بشدة رغبة طفولية في البكاء، بينما انطلق فراس في كشف الحقيقة الصادمة من غير مواربة ولا مداهنة. فأكد لهمام أن الكائن الخفيّ الذي يرافقه منذ ثلاث سنوات ليس حكيمًا ولا معلّمًا ولا ملاكاً ولا إلهًا، ولا هو روح حارسة كما يزعم، بل مارد من شياطين الجنّ، قد

تكون لديه معلومات كثيرة نظرًا لطول عمره، أو لاشتغاله بالسحر ومخالطته لشياطين الإنس، لكنه ليس الصندوق الأسود الذي قد يضيع بعض الناس أعمارهم في انتظار ما يخفيه من أسرار الوجود.

انحدرت الدموع على خدّ همام، وواصل فراس اندفاعه لكشف الحقيقة كاملة، فقال إن روح «ويساكيدجاك» الذي ظهر على هيئة ثعلب ناطق في الغابة لم يكن أيضًا إلهًا ولا نصف إله، وأسطورة «المحتال» الذي يتمتع بصفات متناقضة هي قصة منتشرة لدى شعوب كثيرة منذ آلاف السنين، لكنها ليست سوى حيلة اخترعتها شياطين الجن للعبث بعقول بني آدم، حتى يصبح المجرم محترمًا، وتنحرف القيم الأخلاقية، وتضيع الحدود بين الخير والشر.

انحنى همام في جلسته مسندًا مرفقيه إلى ركبتيه، وأخفى وجهه بين يديه. وضع فراس يده على كتف همام، وواصل إخراج ما في جعبته قائلًا:

- الثعلب كان محتالًا فعلًا، ولكنه ليس مقدّسًا.. إنه جنّي آخر يا صديقي، مجرد مخلوق مثلي ومثلك، ولكنه من جنس آخر ويعيش في عالم آخر.. الجنّي لا يملك من أمره شيئًا. يمرض مثلنا، ويكابد الحياة مثلنا، وفي النهاية سيموت مثلنا، ويُبعث ويُحاسبه الله مثلنا.

رفع فراس يده عن كتف صديقه، وبعد دقيقة صمت رفع همام رأسه ومسح دموعه، وقال بصوت متهدّج:

- هل تريد أن تعيدني للاكتئاب مجددًا؟

أجاب فراس على الفور وهو ملتفت بكل جسمه ناحية همام:

- بل أقدّم لك الحقيقة التي كنت ستقتل نفسك من أجلها!

لم يعلّق همام، وتابع فراس:

- الحقيقة ليست سرًا يتطلب منك كل هذا العناء. هي متاحة لكل البشر ببساطة ووضوح.. انظر إلى صحتك يا عزيزي، أنت تقتل نفسك!

خفض همام رأسه وقال بصوت خافت:

- أنت لا تعرف عن صحتي شيئًا!

اعتدل فراس في جلسته والتفَت بجسمه نحو الأمام، ظل الصديقان صامتان نحو دقيقة، ثم مسح همام وجهه ليستجمع قوّته، وقال:

- هل أنت متفرغ مساء اليوم؟.. أقصد.. قبل غروب الشمس بقليل؟

- نعم، سأفرّغ نفسي لك.

- هل تقبل دعوتي لتزورني في شقتي؟.. إنها قريبة من هنا.

قبِل فراس الدعوة مبتسمًا، ثم نهض وهو يستأذن بالانصراف إلى موعد خاص، بينما كان المارد يراقب المشهد من خلفهما، ومن دون أن يشعرا بوجوده.

قبل غروب الشمس بربع ساعة، وصل فراس إلى شقة همام المكوّنة من غرفة واحدة، حاملًا معه صندوقًا ثقيلًا. رحّب به همام كثيرًا، وقدّم له كأسًا من عصير البرتقال، ثم سأله عن محتوى الصندوق فأخبره أنها هديّة بسيطة

يأمل أن تليق بشاب مثقف وسؤول مثله.

وقف فراس أمام رفوف المكتبة ممسكًا بكأس العصير، ومتأملًا في عناوين الكتب، بينما فتح همام الصندوق ليرى مجموعة كتب إسلامية مترجمة للإنجليزية، فشكره على الهديّة، ردّ فراس وهو منهمك في مطالعة عناوين الكتب المرصوصة باللغة الإنجليزية:

- لا عليك.. إنها مجرّد هدية بسيطة، لكني متأكد أنها ستضيف لك الكثير.

أعاد همام إغلاق الصندوق ووضعه جانبًا، واتجه إلى النافذة خلف فراس ليراقب هبوط قرص الشمس، وتابع فراس وهو يتناول جرعة من العصير:

- في الحقيقة، لا أعوّل كثيرًا على التجارب الروحية.. صحيح أنك مررت بتجربة مميزة في المسجد، وربما تبحث الآن عن تجربة جديدة.. ولكن.. التغيير الحقيقي يكون في الفكر لا في القلب.

تفكّر همام في كلمات صديقه طويلًا ولم يعلّق، واكتفى بالنظر في الأفق، ثم قال:

- اعذرني على التقصير، لستُ خبيرًا في كرم الضيافة، نادرًا ما يزورني أحد.

أبدى فراس إعجابه بكأس العصير، وقال وهو يتصفّح أحد الكتب في يده:

- لا عليك يا صديقي.. لم تقصّر أبدًا.

قال همام بعد دقيقة صمت:

- هل تعلم لمَ دعوتك؟

أعاد فراس الكتاب إلى مكانه، والتفت للخلف، وقال:

- ربما لتكشف لي جزءًا من عالمك الروحي!

ابتسم همام وعيناه متسمّرتان في مشهد الغروب، وقال:

- أريد منك خدمة أخيرة.

- تفضل!

- أريد أن نجري اختبارًا.

- ولمَ لا؟

- سيصلّي كل منا صلاته المعتادة.. ونرى ما يحدث.

خفض فراس رأسه، وأخذ يفكر وهو ينظر لكأس العصير في يده، ثم قال:

- لا بأس، ولكن.. قد لا يحدث شيء!

- لا تقلق، أنا متأكد أني سأحصل على إجابة.

- حسنًا، متى تكون جاهزًا؟

أجاب همام من غير أن يلتفت:

- أفضل وقت للتأمل عند شروق الشمس أو غروبها.

ابتسم فراس وقال:

- وهذا أول دليل على أنها عبادة للشياطين!

التفت إليه همام، وقال بجدّية:

- ماذا تقول؟!

نظر فراس إلى مشهد الغروب من النافذة وقال:

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد الصحابة: «أَقْصِرْ عن الصلاة حتى تطلع الشمس وترتفع، فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار».. ثم قال: «أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس، فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار».

ظهرت الصدمة على وجه همام، ولم يعلّق، وتابع فراس:

- لذا كان الكثير من بني آدم على مرّ التاريخ يتجهون نحو الشمس لأداء صلواتهم عند الشروق والغروب، وهم لا يعرفون أن شياطين الجن هي التي أوحت لقادتهم بأساطيرهم وطقوسهم، فيعبدون الجن من غير أن يعلموا بوجودهم أصلًا.

حكّ همام رأسه في حيرة وظل صامتًا، ونظر فراس إلى الساعة في يده وهو يقول:

- لا تقلق يا صديقي، ستغيب الشمس بعد دقائق، وعندها سأصلي صلاة المغرب، ثلاث ركعات. ما رأيك؟

- حسنًا، هذا هو المطلوب.

- إذن أمهلني دقيقة للوضوء.

خلع فراس سترته، واتجه إلى الحمّام ليتوضأ. كان باب الحمام مفتوحًا وهمام يراقب من الخارج، وسرعان ما كُشف الغطاء عن بصر همام ليرى مشهدًا غير متوقّع.

رأى أشباحًا شبه شفافة لثلاثة أقزام صغار بحجم القطط والأرانب، يقفون

عند أقدام فراس، ويتحركون حوله في تحفّز وتأهّب، كانوا يقتربون منه قليلًا ثم يتراجعون من غير أن يمسّوه، وفراس يتابع وضوءه غير آبه بوجود أحد.

صُدم همام مما رآه، لكنه آثر الصمت والكتمان. وخرج فراس من الحمام وهو يجفف وجهه وذراعيه، ويقول بصوت خافت:

- أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوّابين واجعلني من المتطهرين.

وقف فراس أمام النافذة متجهًا نحو القبلة في الشمال الشرقي، وجاعلًا الأريكة عن يمينه، ثم افترش سترته على الأرض، وطلب من همام أن يقعد على الأريكة ليؤدي طقوسه.

قعد همام وهو يحاول إخفاء ذهوله، وقال له فراس مع ابتسامة خفيفة:

- اسمع يا صديقي، أنا لست من الصالحين المقرَّبين، وهذا ليس تواضعًا، لكني سأحاول كما يحاول أيُّ مسلم أثقلته الذنوب والعيوب أن يخشع في صلاته. لذا تأكد أني لا أمثل الإسلام نفسه، وأن هناك من يمثّله أفضل مني بكثير.

هز همام رأسه وقال:

- لا بأس، هذا مفهوم.

- سأصلي ثلاث ركعات. أقرأ الفاتحة في كل منها، وأستحضر الردّ الإلهي على كل آية أنطق بها، وكأنها حوار بين العبد وربه. هكذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- حسنًا.

- سأحاول أيضًا أن أصلي صلاة مودِّع، أي كالذي يُدرك أنها آخر وقفة له في

حياته بين يدي ربه.

تصنّع همام ابتسامة مجاملة، ونظر فراس إلى ساعته، وسأل:

- هل أنت جاهز؟

تجدّد مشهد أشباح الأقزام في عيون همام مرة أخرى، ورأى أنها أصبحت أكثر عددًا لكنه لم يستطع تمييز عددها، إذ لم يكن ظهورها واضحًا بما يكفي، وكانت تتحفّز حول فراس بحركة عجيبة. لم يستطع إخفاء ذهوله وصدمته، وظل يراقبها، بينما كرّر فراس السؤال:

- صديقي، هل نبدأ الآن؟

- آه.. نعم.. نعم.. تفضل!

كبّر فراس تكبيرة الإحرام بصوت عال، وخلال ثوان قفزت الأقزام لتتعلق على كتفيه وظهره وفوق رأسه، وهو لا يشعر بها.

بدأ فراس قراءة سورة الفاتحة بصوت مسموع:

- الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

ثم استحضر الردّ الإلهي في ذهنه: *«حمِدني عبدي»*.

رأى همام أحد الأقزام متعلّقًا كقِرد صغير على رأس فراس، واضعًا فمه عند أذنه وكأنه يهمس له، بينما أكمل فراس:

- الرحمن الرحيم.

واستحضر في ذهنه: *«أثنى عليَّ عبدي»*.

رأى همام قزمًا آخر على كتف فراس الشمال، ويمدّ لسانًا طويلًا كالضفدع إلى

قلب فراس، لكنه لم يشعر به وأكمل القراءة:

- مالكِ يومِ الدين.

واستحضر: *«مجّدني عبدي»*.

كان المشهد العجيب قد أذهل همام عن التحدّي، فظلّ يراقب ونسي أن يتأمّل. ثم اكتملت عناصر الدهشة بظهور الحكيم خلف فراس، جالسًا بجسده الضخم على الأرض ومسندًا ظهره للجدار، وهو ينظر لهمام بابتسامة هادئة. شعر همام بالخوف للمرة الأولى، وظلّ ينقل نظره بين فراس والأقزام والحكيم. ثم قرأ فراس:

- إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعين.

وكرّرها ثلاث مرات، ثم استحضر الردّ الإلهي: *«هذه الآيةُ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل»*.

أصيبت الأقزام بالذعر بعدما نطق فراس بهذه الآية للمرة الأولى، وتجدد الذعر مع المرة الثانية، ثم انتفضت مبتعدة عنه عندما كررها للمرة الثالثة، ووقفت تراقبه بتحفّز من غير أن تمسّه. ثم قرأ تتمة السورة:

- اهدنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالين.

واستحضر: *«فهؤلاءِ لعبدي ولعبدي ما سأل»*.

بقي همام متجمدًا وهو يشاهد تلك الأحداث المدهشة، ثم قرأ فراس سورة الإخلاص بصوت مسموع، وكبّر راكعًا، فعادت الأقزام لتقفز على ظهره.

مدّ الحكيم يده لهمام، وقال له بالتخاطر:

- أنا جاهز يا بنيّ.

لم يتجاوب همام، وظل يراقب فراس الذي أطال الركوع بخشوع، وهمام مندهش من سكينته وعدم شعوره بتقافز الأقزام.

رفع فراس رأسه قائلًا:

- سمع الله لمن حمده.

ما زال الحكيم يمدّ يده نحو همام، وقال:

- هيا بنا..

لكن همام كان مذهولًا من غير حراك، ولم يلتفت للحكيم. سجد فراس وهو يكبّر، والأقزام ما زالت تتقافز عليه، ثم جلس، وأعاد الحكيم الطلب:

- هيا يا همام.. إنك تخسر طاقتك.

سجد فراس السجدة الثانية، وهمام لا يلتفت عنه، وهنا رفع الحكيم صوته قائلًا:

- همام.. ماذا تنتظر؟!

انتفض همام وكأنه كان في غيبوبة، ونظر إلى الحكيم وقال بالتخاطر:

- حسنًا.. حسنًا.

أغمض همام عينيه، وأخذ يتنفس ببطء حتى تباطأت دقات قلبه، وبدأ التأمل على طريقته المعتادة، وسرعان ما دخلت روحه في عالم الشلال الساحر.

رأى همام نفسه ينساب في الهواء فوق النهر، ويقترب بسرعة من الشلال. كان الحكيم ينتظره هناك، وما إن وصل إليه حتى دعاه للاغتسال تحت الشلال.

وقف همام تحت مصبّ الشلال، غير أنه لم يكن مسترخيًا تمامًا كالعادة، وكانت ملامحه تشي ببعض التشنج والقلق. شجّعه الحكيم على الاسترخاء أكثر، وقال بصوته الهادئ:

- دع الطاقة تخترق كل كيانك وتسير في شراييك.

رفع همام رأسه كما كان يفعل من قبل، وفتح عينيه فرأى أشباحًا شفافة لأقزام ينسابون مع الشلال ويخترقون جسمه من قمة رأسه، وشعر بمرورهم في عروقه كما يسري التيار الكهربائي. تأوّه همام وانكمشت عضلات وجهه، بينما تابع الحكيم توجيهاته بهدوء:

- استشعِر جريان الطاقة في دمك.. في أعصابك.. في عضلاتك.. في كل خلية من جسمك.. نظّف شاكْراتك واشحنها بالطاقة الإيجابية.. اشعر بالطاقة السلبية وهي تتساقط عنك...

نظر همام إلى الأسفل ورأى الأشباح تتساقط من أخمص قدميه، ثم سأله الحكيم:

- هل تشعر بذلك؟

ردّ همام بقلق:

- نعم!

ظل همام معلقًا في الهواء تحت الشلال، والتفت إلى الحكيم فرآه يبتسم مع نظرة حانية، لكن ابتسامته لم تكن كافية لزرع الطمأنينة في قلب همام. وفي العالم الآخر، كان فراس ينهي صلاته ويسلّم عن يمينه وشماله.

نظر فراس إلى همام على الأريكة بجانبه، ورآه مغمض العينين، ووجهه ينقبض.

ويتأوه بصوت خافت. ظل فراس يراقب لمدة دقيقة، ثم رفع يده اليمنى باتجاه همام، وهو جالس على بعد نحو متر منه، وبدأ قراءة آية الكرسي بصوت عال.

في عالم الشلال، تردّدت أصداء تلاوة فراس، وسمعتْها كل الكائنات. أخذ همام يتلفّت من حوله وكأنه يبحث عن فراس، وهو عاجز عن الحركة. أما أشباح الأقزام فأصيبت بالذعر، واضطرب تيار الشلال الساقط وكأنه فقد الجاذبية، فأصبح يتناثر في كل الاتجاهات، ورأى همام الأقزام يهربون كما تقفز الأرانب.

نظر همام إلى الحكيم فرآه في حالة فزع للمرة الأولى، وكأن قناع الهيبة والوقار قد سقط عنه. كان الحكيم يتلفّت من حوله ويخفي وجهه، بينما يواصل فراس التلاوة بصوت خاشع ولحن عذب، وصوته يتردد في أرجاء عالم الشلال وكأنه ينبثق من مكبّرات صوت عملاقة.

كان كل شيء في عالم الشلال يضطرب بسرعة عجيبة، وكأنه على وشك الانهيار. اكفهرّت السماء وأظلمت تحت غطاء من الدخان الكثيف، وتبدّلت الألوان الزاهية لتنقلب إلى سواد وحمرة، وانقلبت الألحان وتغاريد الطيور إلى صرخات تتردد في جنبات الغابة.

نفد صبر الحكيم بعد برهة، وأخذ يغطي أذنيه بكفّيه وهو في غاية الغضب. وبينما كان يحاول جاهدًا كتم صراخه المختنق في أعماقه، أخذت العروق السوداء تتضخم وتبرز بوضوح في يديه ووجهه، وعيناه تحمرّان وتقدحان الشرر.

كان صوت تلاوة فراس يزداد وضوحًا، والدخان الأسود ينقشع ببطء من فوق رأس همام ليظهر له سقف الغرفة. نظر همام مجددًا للحكيم، ووجده يتحوّل تدريجيًا إلى كائن مختلف تمامًا.

تسمّرت عينا همام على الحكيم الذي لم يعد حكيمًا، ورآه للمرة الأولى على هيئته الحقيقية، فلم يكن سوى مارد أسود اللون، أمرد الوجه وأفطس الأنف وعيناه كبيرتان، يحاول جاهدًا إغلاق أذنيه بكلتا يديه، وتنفلت من بين أسنانه صرخات مكتومة بصوت مزعج يشبه الصفير.

كان ذعر المارد مزدوجًا، فتلاوة فراس تكاد تحرقه، وانكشاف حقيقته أمام همام يدمّر في غضون ثوان كل تلك العلاقة التي بناها معه في ثلاث سنوات.

لم يتوقف فراس عن التلاوة، وكان يعيد قراءة الآية من أولها كلما بلغ نهايتها، ويرفع صوته في كل مرة أكثر من التي قبلها، وينظر إلى همام وهو متجمّد بجانبه على الأريكة بلا حراك، وكأنه مقيّد، مع ارتجاف خفيف في أطرافه.

وبينما كان همام والمارد يتبادلان نظرات الذعر، والظلام المحيط يتلاشى، ومشهد عالم الشلال يتبدّد شيئًا فشيئًا، وجد همام والمارد نفسيهما في العالم المادي المحسوس، فانطلق المارد ككلب مسعور وهو يتخبّط بجسده الضخم في أرجاء الغرفة، وكاد صراخه الحادّ يصمّ أذني همام. كان يبحث عن أي مخرج من الباب أو النافذة، ثم تسلل كالدخان من فتحة التهوية في سقف الحمّام، ولم يبق له أثر. وكان همام يتبعه بنظره مذعورًا مثله، بينما لم يرَ فراس شيئًا من المشهد.

توقّف فراس عن التلاوة، وتبادل النظرات مع صديقه. كان همام يرتجف ويتعرّق بشدة، فنهض فراس مسرعًا إليه وضمّه بين ذراعيه كي يهدّئ روعه. ظلّ همام ينظر لفتحة التهوية ويشهق شهقات متقطعة، ثم انفجر بالبكاء على صدر صديقه كطفل صغير.

أفرغ همام كل حمولته من الخوف والحزن والخيبة بنوبة بكاء حادّة، وفراس يطبطب على ظهره وكتفيه، ويهدّئه تارةً بقراءة سورة الفاتحة، وتارة بعبارات

التشجيع والتعاطف.

وبعدما هدأت نفسُ همام وجفّت دموعه، كان الشعور بالخزي والإحباط يمنعه من رفع رأسه والنظر في عيني صديقه. اقترح فراس عليه أن يرتاح في فراشه وينام مبكرًا، ووعده بلقاء جديد في صباح اليوم التالي، ثم غادر إلى الفندق.

الفصل السادس

الفصل السادس

في صباح اليوم التالي، والموافق للرابع عشر من أكتوبر، وعلى نفس طاولة المقهى التي جمعت همام مع كيتشي قبل بضعة أشهر، تجدَّد لقاء فراس وهمام في ساعة متأخرة من الصباح، إذ عانى كلاهما من الأرق والتفكير.

كان همام قد أصبح أكثر انفتاحًا وقدرة على مواجهة نفسه، ولم يضطر فراس إلى بذل الكثير من الجهد لإقناعه بالتحدث بصراحة تامة، فأخذ همام يحكي كل ما رآه في الليلة الماضية من عالم الشلال المزيّف، وكيف انقلب الشيطان أمام عينيه من حكيم وقور إلى مارد يتخبّط ككلب عقور.

كان فراس يشرب قهوته وهو ينصت للقصة بملامح هادئة، وبعدما أنهى همام حديثه أبدى استغرابه من هدوء صديقه، وقال:

- ألستَ مصدومًا بعد كل هذا؟!

ابتسم فراس، وقال:

- بالعكس، لقد أكدتَ لي ما كنتُ أتوقعه بالضبط.

لم يعلّق همام واكتفى بشرب القهوة، وتابع فراس:

- كنت أتوقع ببساطة أن شياطين الجن ستحاول أن توسوس لي لتُفسد صلاتي، لكني بذلتُ جهدي لمقاومتها من غير أن أراها.

- إذن فهذا أمر معروف في دينكم!

- بالتأكيد، والمهم الآن أنك اكتشفت في المقابل كيف كانت تحاول التلاعب بك بعدما سلّمت لها نفسك، فتوهمك بشحن جسدك بالطاقة الإيجابية، وتنظيفه من الطاقة السلبية.

هز همام رأسه بنظرة أسى، وتابع فراس:

- أما المارد اللعين فهو بطل هذه القصة، ويبدو أنه أتقن لعب دور الحكيم منذ زمن طويل، وربما نجح في خداع مئات أو آلاف البشر بالطريقة نفسها.

ابتسم همام وهو يسخر من نفسه، وقال:

- إنها ثلاث سنوات من الخداع.. لا أصدّق أني كنت بهذه الحماقة!

- لا بأس يا صديقي، البعض يبقى مخدوعًا حتى يشيخ ويموت، ثم يكتشف الحقيقة بعد فوات الأوان. فلنحمد الله على نجاتك.

أكمل كلاهما شرب القهوة، ووقعت عينا فراس عفويًا على شاشة تلفزيون معلقة في سقف المقهى، وكانت تعرض صورًا للقصف الإسرائيلي الوحشي على قطاع غزة، ضمن نشرة أخبار في محطة محلية، فقال بأسى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. أكثر من ألفي شهيد في غزة خلال أسبوع!

التفت همام إلى الشاشة، وتابع فراس:

- يبدو أن هذا العدوان سيكون أفظع من كل ما سبقه.

- ليتنا نستطيع أن نفعل شيئًا.

- نستطيع أن نتظاهر على الأقل، أن نضغط على السياسيين، أن نُشهر سلاح المقاطعة الاقتصادية.

- سأفعل كل ما بوسعي. هذا أقلُّ الواجب.

واصل الصديقان المشاهدة بصمت، ثم قال فراس:

- يا لها من مصادفة! في مثل هذا اليوم قبل خمسين سنة، ارتكب الجيش المصري خطأً فادحًا، وحرّك قواته البرية في سيناء بعد عبور خط بارليف

بعيدًا عن غطاء مضادات الطيران، وبهذا خسر العرب التقدم الذي أحرزوه في حرب عام ١٩٧٣، وانقلب ميزان القوى للصهاينة.

علّق همام وعيناه تتابعان الشاشة:

- ولم تترجّح الكفة الأخرى إلا الأسبوع الماضي!

- بالضبط، والفارق الآن هو خذلان الجيوش الرسمية!

نظر همام لصديقه وهو يهز رأسه موافقًا، وانشغل كلاهما بمشاهدة الخبر حتى انتهائه، ثم قال همام:

- هل ستبقى في تورونتو لفترة أطول؟

- لا للأسف. سأعود إلى مونتريال غدًا.

ظهر الأسى على وجه همام ولم يعلّق، ثم قال فراس:

- بالمناسبة، اليوم سأقدم محاضرة أخيرة ضمن جولتي هنا، سأتحدث عن دور «مسلسلات الأنمي» في تطبيع نفوس الشباب مع شياطين الجن. هل تريد الحضور؟

لم يتفاعل همام، وقال ببرود وهو ينظر لكأس القهوة:

- شكرًا على الدعوة.. لكن.. لست مهتمًا بالأنمي عمومًا.. ربما لم أعد أطيق سماع شيء عن الشياطين.

أدرك فراس أن صديقه يشعر بالإحباط، فابتسم ونظر في عينيه قائلًا:

- اسمع، أعلم أنك بحاجة للمساعدة، لكن اعذرني، عائلتي تنتظرني.. أليس لديك أصدقاء يدعمونك في هذه الفترة؟

- كلهم منشغلون، ولا أحد يعرف حالتي مثلك.

- لا بأس عزيزي، سيستمر التواصل بيننا بإذن الله.

بحلول وقت الظهيرة، خرج الصديقان للسير في شوارع وسط المدينة، ومع أن فراس كان يحاول الترويح عن صديقه ببعض المزاح، لكن همام كان مشغولًا بالتفكير العميق، ثم قرر أن يسأل بدون مقدّمات:

- هل تفكر في الموت؟

فوجئ فراس بالسؤال، لكنه أجاب من غير تفكير:

- نعم، كل يوم.

- وهل تخاف منه؟

أجاب بعد قليل من التأمل وهو ينظر للأرض:

- أخاف مما بعده.

سأله همام عن السبب، فرفع فراس رأسه، وأخذ يشرح وهو ينظر للمكان من حوله:

- حسنًا، سأقول لك، مع أني لم أبلغ الحد الأدنى من الزهد المطلوب، لكن.. لا يمر يوم واحد في حياتي من دون أن أتذكر، وربما أكثر من مرة، أن كل هذه الحياة التي أعيشها، بكل تفاصيلها، بكل أحزانها وأفراحها، بمصائبها ونكساتها

ونجاحاتها، هذا كله ليس سوى اختبار.

أبدى همام اهتمامه من دون تعليق، وتابع فراس:

- والأصعب من ذلك.. أنه اختبار لا أعرف متى سينتهي. ربما الآن، أو بعد قليل، أو غدًا، أو بعد عشرات السنين.. وفوق هذا: هو اختبار واحد فقط. إما أن أنجح فيه مرة واحدة وإلى الأبد، أو أفشل، وأتحمل النتيجة أيضًا إلى الأبد.

فكّر همام بعمق في ما كان يسمعه، ثم علّق:

- فهمتُك، حسنًا.. أما أنا فلديّ فرص كثيرة.

لم يفهم فراس للوهلة الأولى، ثم ابتسم بعد تفكير وقال:

- تظن أن روحك تتناسخ من جسد لآخر!

هزّ همام رأسه مبتسمًا، فتابع فراس:

- حسنًا، هل تذكُر حقًا أنك عشت في أي حياة سابقة؟!

- لا، ولكن هناك الكثيرون يؤكّدون تذكّرهم لحيواتهم السابقة.

قال فراس بثقة:

- إن كانوا صادقين فهذا ما أوهمتهم به الشياطين.. ألا ترى أن كل من يزعمون ذلك هم من المؤمنين أصلًا بفكرة تناسخ الأرواح؟ ويعيشون أيضًا في مجتمعات تؤمن بذلك؟!

فكّر همام قليلًا، ثم قال:

- لا أنكر هذا.. ولكن.. ربما...

لم يكمل همام تعليقه وهو يفكر، فسارع فراس للتعليق:

- لن تجد مسلمًا واحدًا يتذكّر شيئًا كهذا مثلهم، ولن تجد عند هؤلاء أيضًا سوى مزاعم عن ذكريات باهتة لأحداث ومواقف نادرة، وليس سردًا مفصلًا لكل سيرة الحياة السابقة!

وقبل أن يكمل فراس حديثه، انتبه إلى مشرّد جالس على الرصيف، واضعًا أمامه كأس قهوة ورقي فارغ لجمع التبرعات، وهو في حالة سكْر شديد، فقال فراس وهو ينظر للمشرّد بأسى:

- الشياطين تريد إقناعنا بأن هذا مثلًا كان طاغية جبارًا في حياة سابقة، أو مجرد شخص سيئ لم يلتزم بالأخلاق الحميدة، ثم مات وانتقلت روحه إلى هذا الجسد البائس، وهاهو يلقى عقابه مشردًا منبوذًا على قارعة الطريق!

رفع همام كتفيه وقال:

- ربما.

- لا يا صديقي.. بل هذه مجرد أسطورة، وهي مناسبة جدًا للرأسماليين الذين يتكئون الآن على مقاعد وثيرة في مكاتبهم بهذه الأبراج العالية.

رفع فراس رأسه لينظر إلى الأبراج التي تملأ المكان كما تملأ الأشجار الغابة، وقال:

- إن أقنعتَ هذا المشرّد المسحوق بأن «قانون الكارما الكوني» هو سبب شقائه، فلن يثور ضد الذين ظلموه واستعبدوه، وبالكاد سيفكّر بتحسين فرص تحرره في دورة حياة جديدة.

ابتسم همام وقال ممازحًا:

- أرجو ألا تهتف بعد قليل: يا مشرّدي العالم اتّحِدوا![1]

ضحك فراس ضحكة طويلة، ثم قال:

- اطمئن يا صديقي.. يمكنك أن تنتقد الرأسمالية، أو حتى تقوم بثورة عادلة ضد كل أشكال الظلم، من دون أن تكون شيوعيًا.

ردّ همام مبتسمًا:

- لا تقلق، نحن متفقان.

تابع فراس بجدّية:

- التناسخ و عجلة الكارما مجرد خدعة وضعتْها الشياطين للترقيع، فعندما نحذف الحساب في الآخرة من المعادلة، لا بد من تقديم البديل.

هزّ همام رأسه وكأنه بدأ بالاقتناع، ووصل الصديقان إلى نقطة تقاطع شارعين، فتوقّفا عن السير بانتظار الضوء الأخضر لعبور المارّة، ووضع فراس يده على كتف همام وقال بحزم:

- إنها حياة واحدة يا عزيزي، واختبار واحد، يخوضه كل منا لوحده، وسيُحاسَب في النهاية لوحده.

امتعض همام وأظهر شعوره بالضجر، وقال بعد برهة:

- كلامك هذا يخيفني...

- الواقع لن يتغير يا صديقي.. سواء خوّفتُك بالحقيقة أو خدّرتُك بأسطورة شيطانية.. أنا مثلك، كلنا في هذا الاختبار سواء، وعلينا أن نستعد للنجاح فيه قبل فوات الأوان.

---

(١)"يا عمّال العالم اتحدوا" هو شعار صاغه كارل ماركس مؤسس الشيوعية.

- أنت تخنقني!

شعر فراس بالحرج، لكن ضجيجًا قادمًا من بعيد ساعده على تغيير حديثه وإنقاذ الموقف، فالتفت وقال لهمام:

- هل تسمع؟

همام: نعم!

انطلق الضوء الأخضر، وعبَر الصديقان الشارع وتابعا المسير باتجاه مصدر الصوت الذي كان يزداد وضوحًا. التزما الصمت، وبذلا جهدًا لتمييز الصوت، ثم قال فراس:

- يبدو هتافًا، أليس كذلك؟

- صحيح، كأنها مظاهرة!

أسرعا في سيرهما بدافع الفضول، وما هي إلا دقيقة حتى التقطت أذنا همام كلمة فلسطين بالإنجليزية (Palestine)، فصاح مندهشًا:

- إنها مظاهرة من أجل غزة!

ابتسم الصديقان، وانطلقا بسرعة حتى لاح لهما الحشد رافعًا أعلام فلسطين. كان همام يبذل جهدًا مضاعفًا للّحاق بفراس، ويعاني من نوبة سعال متقطعة، ثم انضمّا إلى الحشد، وهتفا بكل حماس:

- Free Free Palestine.. Free Free Palestine...

سار الحشد باتجاه ساحة ناثان فيليب (Nathan Phillips Square) بوسط المدينة، وتجمهر هناك أمام عدسات المصوّرين، وكان معظم المتظاهرين من

غير العرب والمسلمين، ومن أعراق وخلفيات متنوعة.

أثلج هذا الحدث غير المتوقّع قلبَي الصديقين، وأخرج كل منهما هاتفه المحمول لالتقاط الصور التذكارية للحشد واللافتات المرفوعة، فكانت بعض الشعارات تتهم الاحتلال بارتكاب إبادة جماعية وجرائم حرب، وبعضها الآخر يساوي بين الصهيونية والنازية، كما كان الكثير منها يطالب الحكومات الغربية بالتبرؤ من الاحتلال والكفّ عن دعمه.

حاول همام أن يُفرغ كل ما بقي من طاقة جسده المنهَك في الهتاف، وعندما لاحظ فراسُ أن صديقه أوشك على السقوط من الإعياء، أمسك بيده وجذبه للانسحاب من وسط الحشد، وسارع لحجز سيارة أجرة كي توصله إلى شقته. وقبل أن يركب همام، عانقه فراس بحرارة وقال مودّعًا:

- سأسافر غدًا في الصباح، وقد لا أتمكن من لقائك قبل السفر.

تشبّث همام بصديقه، وشعر بغصّة حارقة في حلقه، ثم غادر حاملًا في قلبه خليطًا من الحماس والحزن، مع شيء من التفاؤل.

عانى همام من الأرق في تلك الليلة، وظلّ ثلاث ساعات يتقلب في فراشه، وهو يقلّب في رأسه الأفكار والذكريات والأحلام والمخاوف.

وفي آخر ساعة من الليل، وبينما كان غارقًا في النوم، رأى همام نفسه في عالم مظلم كئيب. تلفّت من حوله مذعورًا، ووجد جبالًا بركانية تحيط به من بعيد،

والدخان الأسود يملأ السماء. نظر إلى الأرض فوجدها صحراء ذات تضاريس وعرة، وثمة حجارة سوداء متناثرة في كل مكان.

لم يعد همام ينساب في الهواء بخفّة كما كان في عالم الشلال، ولم يجد نفسه قادرًا على السير فوق تلك الأرض الوعرة بقدميه الحافيتين، فظلّ يتلفّت محاولًا اكتشاف أي مخرج، لكن المارد لم يمهله كثيرًا، وسرعان ما ظهر أمامه بصورته الحقيقية، على بعد نحو عشرة أمتار، وكان مرتديًا عباءة وقبعة سوداوين، ومسندًا يده إلى ذات العصا الغليظة.

كان همام يقف وحيدًا ضعيفًا هزيلًا، وأمامه المارد العملاق تقدح عيناه شررًا. استجمع همام كل قواه، وكأنه كان قد أعدّ نفسه لهذه المواجهة، ونظر إلى المارد بحزم، وسأله:

- ماذا تريد؟

ردّ المارد بصوت عميق وحادّ، لم يعرفه همام من قبل:

- أخبرني أنت أولًا.. ماذا تريد؟

- لا أريد منك شيئًا.. فقط دعني وشأني.

أطلق المارد ضحكة ساخرة، وقال:

- الآن لم تعد تريد؟!

- وماذا يضرّك في تغيير موقفي؟ هناك ملايين البشر الذين يمكنك التلاعب بهم.. اختر واحدًا منهم واتركني.

ضحك المارد مرة أخرى، وأخذ يمشي ببطء حول همام بقدمين تشبهان حوافر الحصان، وهو يتكئ على العصا في كل خطوة، وقال ساخرًا:

- آه.. ما أكثر نسيان الإنسان!

ثم نظر إلى همام وقال بلهجة غاضبة:

- هل نسيت ما قاله لك الغورو في الهند؟

- لم يعد يهمّني.

رفع المارد سبابته في وجه همام، وصاح بحزم:

- لقد حذّرَك الغورو من الانسحاب، وأوضح لك أن الضريبة ستكون غالية.

شعر همام بانقباض شديد في صدره، وأخذه السعال دقيقة كاملة، ثم قال وهو يتأوه:

- أرجوك.. دعني وشأني.

سقط همام جاثيًا على يديه وركبتيه وهو يسعل بحدّة، واقترب منه المارد، ووضع طرف العصا على ظهر همام وهو مطأطئ الرأس، وقال:

- أرأيت كيف جئت بضعفك ومرضك إلى عالمي؟

ثم ضحك ضحكة مدوّية وتابع:

- ألا ترى سلطتي عليك؟ وكيف يمكنني العبث بصحّتك وحياتك؟

ازداد الألم في صدر همام، وأخذ يتوسل كي يتركه، والمارد يضغط بعصاه على ظهره ويطلق ضحكات حادّة مزعجة، ثم صاح متحدّيًا:

- أنت من أتيتَ إليّ ورضيتَ بشروطي.. وروحك ستبقى ملكي للأبد.

فتح همام عينيه من النوم، وصرير صراخ المارد يرنّ في أذنه. ظلّ متجمدًا

عاجزًا عن الحراك وهو يرتجف برهة من الزمن، ثم انحلّت عضلات جسمه المتشنّجة بالتدريج وكأنها كانت مقيّدة. نظر إلى الغرفة من حوله ليتأكد من مكانه وزمانه، ووجهه يتصفّد عرقًا ويرتعد من الخوف، ودخل في نوبة بكاء كطفل صغير.

في الصباح، عاد فراس بالطائرة إلى مونتريال، وتردد همام كثيرًا في الاتصال به والبوح له بما رآه في منامه. كان يفكّر طوال الوقت في تهديدات المارد، وشعر بأن التخلص منه صار مستحيلًا، حتى حدثته نفسه مرارًا بالانتحار.

وبعد يوم كامل من التفكير، قرّر أخيرًا أن يرسل رسالة نصّية إلى فراس، يسأله فيها عن موقف الدين مما يقال عن امتلاك الشيطان لروح الإنسان. قرأ فراس الرسالة باهتمام، وأرسل له هذا الردّ الموجز:

«هذه من أساطير الشياطين التي يخوّفون بها أولياءهم من بني آدم، فلا تصدّقها يا صديقي.

الأرواح بيد الله، لا يملكها أحد، ولا يمكن لإنسان ولا شيطان أن يمتلك روح أي مخلوق، بل لا أحد يستطيع التحكّم في روحه نفسها.

قد تسمع قصصًا عن عقْد أو اتفاق يجريه شيطان مع إنسان، يتعهّد فيه الأول بتحقيق كل أحلام الثاني خلال حياته، مقابل أن تصبح روح الثاني بعد موته ملكًا للأول، فيأخذ الشيطان روح هذا الإنسان معه إلى الجحيم، ويصبح عبدًا وأسيرًا له هناك!

لكن الحقيقة هي أن الشيطان لا يملك تحقيق كل أحلام الإنسان، فالجنّي ليس إلهًا حتى يقول للشيء كن فيكون، وهو أيضًا ليس ملِكًا على عالم الجحيم كما تقول الأساطير والأفلام، بل ستُعذّب شياطين الجن كما سيُعذّب أولياؤهم

من الإنس في الجحيم معًا، وليست لأحدهما أي سلطة على الآخر هناك».

شعر همام ببعض الراحة عندما قرأ الرسالة، لكن ذهنه ظلّ مشوّشًا، فالمعتقدات التي يعتنقها منذ سنوات ما زالت قيد المراجعة، وما رآه من تبدّل الحكيم إلى مارد شرير ما زال يطرح على عقله الكثير من الأسئلة.

مرّ أسبوعان على رحيل فراس، ووسط انشغاله بحياته اليومية لم يتواصل مع همام سوى برسالتين قصيرتين على تطبيقات المراسلة، يطمئنّ فيهما على أحواله وصحته، لكن همام كان يعيش صراعًا داخليًا كل يوم، وينخرط في معارك مع عالم الشياطين كل ليلة، حتى اضطر أخيرًا لبث شكواه إلى الصديق الوحيد الذي بات يثق فيه.

كان فراس يعمل على حاسوبه في مكتبه المنزلي، ويشرب قهوة الصباح. وعلى جدار الغرفة عن يمينه كانت شاشة التلفزيون تعرض نشرة الأخبار. أضاء اسم همام على شاشة هاتفه المحمول في مكالمة واردة، فالتقط فراس الهاتف ورحّب بصديقه بحرارة، وسأله عن أخباره وصحته.

على الطرف الآخر، كان همام جالسًا على أريكته، عيناه محاطتان بهالتين سوداوين، وشعره الطويل غير مهذب، والستائر مغلقة لحجب ضوء الشمس، وأغراضه مبعثرة في أنحاء الغرفة.

ردّ همام على سؤال صديقه:

- لستُ في أفضل أحوالي.

- خيرًا إن شاء الله!.. ما بك يا صديقي؟

- مرّ أسبوعان على غيابك.. ووضعي يزداد سوءًا كل يوم!

- أرجوك أوضح!

- الكوابيس تقضّ مضجعي كل ليلة.. المارد وأقزامه ينتقمون مني.. صور أشلاء الأطفال في غزة تلاحقني.. صحتي تتدهور.. لم أعد أحتمل...

انهار همام وبدأ بالبكاء، ونهض فراس من مقعده مندهشًا وقال:

- يا إلهي!.. لم تخبرني بهذا من قبل!

اختنق همام بعبَراته وعجز عن الكلام، وقال فراس وهو يتجوّل في غرفته:

- اسمعني جيدًا.. من الطبيعي أن تحاول الشياطين إخافتك واستفزازك وحتى إلحاق الضرر بك، هم لا يقبلون انسحاب أحد من عالمهم بسهولة.

قال همام وهو ينتحب:

- ساعدني أرجوك.. لم أعد أستطيع المقاومة.

وقعت عينا فراس على شاشة التلفزيون، وخطف انتباهَه شريطُ الأخبار مكتوبًا عليه: «محلل إسرائيلي يعترف بأن المقاومة كانت أقوى من توقعاتهم»، ثم قال بهدوء وحزم:

- صدقتَ يا صديقي.. لن تقوى على المقاومة وحدك.. وربما لن أقوى على دعمك أيضًا...

وقبل أن يسيء همامُ الفهم ويصاب بالإحباط، تابع فراس قائلًا:

- أتذكُر تجربة الصلاة يا همام؟

حاول همام قطع بكائه وقال بصوت متهدّج:

- نعم.

- أتذكُر عجزهم عن إلحاق أي ضرر بي؟

- نعم.

- أتذكُر أنك رأيتهم ينهزمون عني عندما أشهرتُ سلاحي الوحيد: «إياك نعبد وإياك نستعين»؟

أجاب همام بصوت أقوى:

- نعم.. صحيح.

قال فراس وعيناه تراقبان لقطة لأحد عناصر المقاومة في غزة وهو يفجّر دبابة بعبوة ناسفة يحملها بيده:

- نحن لن ننتصر بقوتنا أبدًا يا صديقي، شياطين الإنس والجن أقوى مني ومنك.. ومن الجميع.. هذه الحرب نخوضها بسلاح الإيمان أولًا، ثم نُعدّ ما نستطيع إعداده من قوة.

مسح همام دموعه، وشعر بالحرج والارتباك، ثم قال:

- حسنًا، لستُ مستعدًا للإيمان بعد.. أشعر أني أقترب منه كل يوم.. ولكن لست متأكدًا أني سأصل إليه أيضًا.. على أي حال.. هل لديك سلاح آخر يساعدني الآن؟ ولو مؤقتا؟

قعد فراس على مقعد مكتبه، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، ثم أخذ يشرح

لهمام القوة الروحية لسورة البقرة، وعجْزَ كل مرَدَة الجن عن مقاومتها، وحكى له قصصًا لأشخاص كانوا ضحايا لأقوى أنواع السحر، ثم تمكّنوا من استعادة حياتهم الطبيعية بفضل هذه السورة العظيمة، ولم تنته المكالمة إلا وقلبُ همام قد تشرّب من العزيمة ما يشجّعه على المواجهة بهذا السلاح الجديد.

سارع همام للبحث عن أي تلاوة مسجّلة لسورة البقرة على شبكة الإنترنت، فوجد تلاوة بصوت القارئ الراحل عبد الباسط عبد الصمد، وبدأ تشغيلها على الفور. رقّ قلبه مع الدقيقة الأولى، وغشيته سكينة لم يعهدها منذ تجربته الأخيرة في المسجد.

كان التسجيل يمتد لساعتين ونصف، فالقارئ يتريث في ترتيل السورة وتجويدها وتحبيرها بأفضل طريقة ممكنة، وينوّع صوته بين القرار والجواب، ويتنقّل بين المقامات بأسلوبه المميز. فوقع حبّ هذه التلاوة في قلب همام، وتركها تصدح في غرفته أربعًا وعشرين ساعة.

حظي همام أخيرًا بنوم هادئ طوال الليل، ولم يشعر بالمارد الذي اقتحم غرفته في منتصف الليل، ثم أخذ يتلوّى في زاوية الغرفة وهو يسدّ أذنيه، وحاول مرارًا الاقتراب من همام والجثوم على صدره، لكنه لم يستطع الصمود أكثر من دقيقة، وولّى هاربًا والحقد يملأ قلبه الأسود.

اتصل فراس بصديقه في اليوم التالي ليطمئن عليه، وابتهج كثيرًا بسماع خبر خلاص همام من الجاثوم اللعين، وشدّد فراس على ضرورة التمسك بهذا السلاح الفعّال لفترة طويلة، فوعده همام بذلك.

وخلال ثلاثة أيام، لم تعد سورة البقرة بصوت عبد الباسط مجرّد سلاح يستقوي به، ولا حتى علاج يُبلسم آلام جسده وروحه، بل كان همام ينصت

باهتمام لكل كلمة، وعندما يتعسّر عليه فهم أيّ منها يسارع للبحث عن تفسيرها بالإنجليزية على الإنترنت، فيجد فيها غذاءً غير مألوف لعقله المتعطّش للمعرفة، وأجوبةً على تساؤلات لطالما كدّته من طول التفكير والحيرة.

أخيرًا، قرّر همام أن يفتح صندوق الكتب الذي أهداه له فراس قبل رحيله، فقد كان يشعر بعبء نفسي ثقيل يمنعه من الاقتراب منه. أخرج جميع الكتب ليطّلع على العناوين، واكتشف بينها قصاصة ورق صغيرة كتبها فراس بخط يده، يقترح فيها خطّة لقراءة الكتب بالتسلسل، وكان الكتاب الأول المقترح من تأليف فراس نفسه، وهو بحث أكاديمي باللغة الإنجليزية يقارِن بين منظومتين عقديّتين ورؤيتين مختلفتين للوجود، هما المنظومة التوحيدية الممثَّلة بالإسلام والمنظومة الغنوصيّة.

حمل همام الكتاب الضخم بين يديه متأملًا تفاصيل الغلاف، ومع أن الساعة كانت تشير إلى العاشرة ليلًا فقد قرّر الشروع بقراءة المقدمة قبل الركون للنوم، فاصطحب الكتاب إلى السرير وبدأ بالقراءة.

لم ينتبه همام لمرور الوقت إلا بعد منتصف الليل، وهو يتخطى الفصل الأول من الباب الأول. فمع أن صياغة الكتاب الأكاديمية تخلو من التشويق، إلا أن طرحه الجديد كان كافيًا لأسر قلب همام. حاول جاهدًا أثناء تصفحه للصفحات الأولى أن يقنع نفسه باستغنائه عن تلقي الدروس في المعتقدات الباطنية، فهو الذي قضى سنوات طويلة في دراستها وممارستها، لكن سرد تلك المعلومات في سياق نقدي دفعه للإقرار ضمنيًا بالتواضع، وبضرورة القراءة

من جديد وبدون خلفية مسبقة، حتى اقتنع بأنه ما زال بحاجة لاكتشاف أبعاد خفية من معتقداته نفسها قبل اكتشاف الإسلام.

استسلم همام للنوم تحت وطأة النعاس والتعب، وما إن أصبح الصباح حتى التقط الكتاب من جانب وسادته واستأنف الإبحار في مقارناته وحفريّاته العقديّة العميقة.

كان الكتاب يشرح اعتقاد الغنوصية بوجود إله روحيّ انبثقت عنه الكائنات الروحية الأولى، وبعد سلسلة من الفيوضات والتزاوجات وُلد إله آخر شرير، وبما أن لديه القدرة على الخلق فقد خلق عالمنا الماديّ الذي نعرفه، كما خلق مجموعة آلهة ليحكموا معه هذا العالم بسماواته السبعة، بينما ظل الإله الروحي الخفي معزولًا عن هذا العالم المادي المليء بالشر والجهل وغرائز الغيرة والتحاسد والصراع. والإنسان هو أحد الكائنات الحبيسة في هذا العالم، لكن روحه المنبثقة من الإله الخفيّ ما زالت كامنة فيه. ومعظم الناس ماديون منغمسون في تفاصيل الحياة ولا يدركون ما وراءها، وتعلوهم طبقة من الناس المؤمنين بالأديان، وهم يبحثون عن خلاصهم بالإيمان، أما الطبقة العليا ففيها النخبة الغنوصية، ممن يتطلعون إلى الخلاص من سجنهم الأرضي بالكشف العرفاني والمعرفة، وهم مميزون بخِلْقتهم وليس فقط باجتهادهم، بل تم اختيارهم مسبقًا من قبل أعوان الإله الخفي، وسيلتحقون أخيرًا بعالم الأرواح النوراني الذي يعلو السماوات السبعة.

وثمة اختلافات كثيرة في التفاصيل بين المعتقدات الغنوصية، فقد يلتزم البعض بقواعد أخلاقية وسلوكية وشعائرية لتحقيق هذا الخلاص، بينما لا يرى آخرون وجودًا لمعنى الخطيئة، فالعالم أوجده إله مادي شرير نتيجة لخلل في بنية الوجود، وليس هناك حساب ولا عقاب، بل تطلّعٌ فقط للإشراق

العرفاني في هذه الحياة تمهيدًا للّحاق بعالم الأرواح، سواء بعد سلسلة من تناسخ الأراوح في عدة أجساد يعيش كل منها حياته الخاصة أو بدون تناسخ. وأما الأديان والشرائع فهي من اختراع الإله الخالق ليُثقل بها كاهل الإنسان ويقيّده، لذا تتحدّى المذاهب الغنوصية هذه الشرائع بطرق عدة، بدءًا بالرهبنة وتعذيب الجسد، ووصولًا للإغراق في ملذات الجسد والرذيلة، بل يذهب البعض إلى ضرورة التمادي في الفواحش والموبقات كي يسمحوا لقوى الشر بالعربدة حتى تُنهَك وتهلك، وكأن العالم المادي لن يبلغ غايته وينتهي إلا باكتمال دورة الشر الحتمية فيه.

انقدحت في ذاكرة همام بعض الذكريات كلما انتقل من فقرة لأخرى، فتذكّر بعض طوائف الهندوس التي التقى بها في الهند ممن يمارسون رذائل يستحي منها عامة البشر، وكذلك طوائف غنوصية أخرى قرأ عنها في الغرب وهي تقرن الروحانية بالإباحية المطلقة لتحقيق الغرض ذاته.

تذكّر أيضًا ما قرأه في كتب الطائفة الثيوصوفية، فهي ترى أن «الأديان الإبراهيمية» ليست سوى وسيلة لتعبئة الأعراق البشرية غير الناضجة في منظومات اجتماعية منضبطة، وأن الحقيقة لا يعرفها سوى النورانيّون الباطنيّون الذين يتّصلون مباشرة بالكائنات الروحية الخفية. والثعبان الذي أغوى آدم وحواء للتمرد على «الإله الخالق» هو ذاته الإله الخفي الذي يستحق العبادة، أو هو -في رواية أخرى- البطل الحقيقي لقصة الخلق الذي تجشّم عناء التسلل إلى موطن الإنسان الأول ليخبره عن سر شجرة المعرفة التي يريد الإله المادي الخالق أن يحرمه منها، بينما يسعى هذا البطل -وهو حامل شعلة الضياء «لوسيفر»- لرفع الجهل الذي فرضه ذاك الإله على الإنسان.

لم يفارق همام هذا الفصل قبل أن يُبحر ذهنُه في مقارناته الخاصة، فالغنوصية التي تزعم تقديس الجانب الروحي وتحتقر الجانب المادي لا تبدو مختلفة كثيرًا عن العلمانية المادية نفسها كما كان يظنّ، بل هما وجهان لعملة واحدة. وضع همام الكتاب على صدره، وأخذ يفكر:

«إذا كانت المادية تفضي إلى إحلال الإنسان محلّ الإله، حتى يصبح الإنسان قادرًا على التحكم في العالم بالتكنولوجيا والعقل، فالغنوصية تسعى بدورها لاتحاد الإنسان بالإله والاندماج فيه حتى يصبحا كياناً واحدًا. إذن لو ألغينا دور الإله أو اندمجنا فيه فالنتيجة واحدة، وهي تأليه الإنسان نفسه!».

واصل همام القراءة، ووجد أن الكتاب يستفيض في شرح هذه المقارنة بالفعل، ثم يتوقف عند عداء الغنوصية لليهودية والمسيحية، وتغلغل الغنوصيين في داخل هاتين الطائفتين لتحريفهما من الداخل. وأهم النقاط التي استوقفت همام أن العهد القديم[1] من «الكتاب المقدّس» يقدّم صورة معيبة للإله الخالق، فهو إله قوميّ، يحلّ في شعبه (بني إسرائيل) وفي أرض الميعاد، ويرتكب أفعالًا شريرة ومتناقضة، وقد يبدو متخبطًا في بعض قراراته أيضًا، وحتى الرسل الذين يرسلهم إلى البشر يرتكبون من الموبقات ما لا يميّزهم عن حثالة القوم. أما في العهد الجديد[2] فيضطر الإله للحلول في جسد المسيح كي يفدي البشرية ويخلصها من خطاياها ومن لعنة الناموس، فيقدّم جسده لأبشع أشكال التعذيب والقتل، ثم التشهير والصلب!

---

(١)العهد القديم هو القسم الأول من الكتاب المقدس عند المسيحيين، ويضم الأسفار التي يُعتقد أنها أنزلت على النبي موسى عليه السلام (التوراة)، وأسفار أنبياء آخرين من بني إسرائيل، وهناك خلاف بين الطوائف المسيحية بشأن عدد الأسفار المعتمدة.

(٢) العهد الجديد هو القسم الثاني من الكتاب المقدس، ويضم الأناجيل الأربعة: إنجيل متّى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، بالإضافة إلى سفر أعمال الرسل الاثني عشر، وأربعة عشر رسالة لبولس، وسبع رسائل لرسل آخرين (رسائل الكاثوليكون)، وسفر الرؤيا. وهناك خلاف أيضًا بشأن بعض مكونات العهد الجديد وترتيب الأسفار، وخلاف أيضًا بشأن أسفار أخرى.

غصّت ذاكرة همام بمواقف من طفولته ومراهقته شهد فيها إفلاس أصدقائه المسيحيين في نقاشاته الساخنة معهم، فالنشأة العلمانية التي تلقاها في البيت والمدرسة كانت كفيلة بتسليط الأضواء على ثغرات هذه العقيدة، ثم وجد في قراءاته الغنوصية الأولى أن ما ظن أنه يسدّ الثغرات ويشفي الغليل ويشبع الروح.

استهلكتْ قراءةُ نصف الكتاب يومًا كاملًا من حياة همام، وهو منقطع في غرفته عن العالم الخارجي، ثم أقبل في صباح اليوم التالي على إتمام الكتاب بنهمٍ شديد، فوجد النصف الثاني يقدّم البديل الإسلامي في سياق مقارن، ويبدأ ببسط مفهوم الإله الواحد الأزليّ، الخالق لكل الموجودات بلا استثناء، والمتنزّه عما يلحق بمخلوقاته من صفات النقص. فهو ليس إلهًا منسحبًا خفيًا، ولا بعيدًا عن عالمه، ولا منخرطًا فيه، بل متعالٍ عنه ومهيمنًا عليه وقيّومًا على شؤونه بأدقّ التفاصيل. وهو إله مستغنٍ عن خلقه، لا يحتاج أعوانًا ولا شركاء، ولا يتمرّد عليه أحد من المخلوقات إلا ضمن المساحة الضيقة التي منحها له الإله ليختبره ثم يحاسبه.

لم يُفاجأ همام في التعرّف على صفات الإله وهو يقلّب عشرات الصفحات من كتاب صديقه، فقد تشبّع من الإنصات لسورة البقرة ثلاثة أيام، وهي تحدّثه في سياقات عدة عن الإله الذي أنزلها، وهي التي حاجج بها رسولُه أهلَ الكتاب بكل ثقة. كما تعرّف همام من السورة الطويلة على قصة الخلق، وعلى حسد إبليس لآدم وتوعُّده له ولذرّيته حتى آخر الزمان. لذا لم يجد صعوبة في اكتشاف الفارق الكبير بين الإسلام والغنوصية في الموقف من الخلاص، فالإسلام لا يقيم بنيانه على أساطير هزيلة كي يُقنع أتباعه بمؤامرة من «الإله المادي» لا تدركها إلا النخبة، وأن «الإله الخفيّ» نفسه هو ضحيّتها، بل يطرح الحقيقة البسيطة في كتاب مُعجز ومتاح لكل الناس، ويحذّرهم من المؤامرة الحقيقية التي يحيكها جنّي لا إله، وهو إبليس مع أعوانه، لصرفهم عما خُلقوا

له، بينما يبشّرهم الإسلام بأن الخلاص لا يتطلب ما هو أبعد من الالتزام بتعاليم الشريعة، وبدون فداء وقرابين ورهبنة وكشف عرفاني، ولا سحر وطلسمات وبحث عن أرواح خفيّة حارسة.

استحضر همام زياراته المتكررة في الأيام الأخيرة للمسجد، حيث دأب على الجلوس هناك خارج أوقات الصلاة طلبًا للسكينة والراحة. لم يجد فيه كهنوتًا، ولم يسمع يومًا عن منصب بابويّ يستمد قدسيّته وعصمته من «روح القدس»، ولا عن صكوك للغفران يبيعها رجال الدين للعصاة، بل هناك أوقاف يتبرع بها المحسِنون لتمويل المسجد ومشاريعه بلا تملّك، وشيخٌ اكتسب العلم بجهده الشخصي ليقود الشعائر ويتولى التعليم بلا وصاية.

وفي الكتاب الذي بين يديه، تمضي المقارنة إلى الغنوصية التي تتخفّف من المعبد والكهنوت، وتُقنع الإنسان بأن معبده في داخله، بل الإله نفسه يحلّ فيه، فالإنسان هو المعبد والإله ذاته. ومع ذلك، يبقى هذا الإنسان خاضعًا «للإله الخفيّ» طوال حياته، يقدّم له القرابين، ويعذّب جسده كي يتّحد فيه، ويستميت لإرضاء الأرواح التي تنوب عنه، فهو أكثر خضوعًا للعبودية من أتباع أي دين آخر، وحتى من الملحدين الذين استسلموا لعبودية الرأسمالية والاستهلاك!

اقتنع همام أخيرًا بأن أسرار الحكمة الخفيّة التي بذل حياته في البحث عنها لم تكن أكثر مما هو منشور في كتب الغنوصيّين الجدد، فمنذ أواخر القرن التاسع عشر بدأت أسرار الجمعيات السرية والطوائف الباطنية بالظهور في كتب «حركة العصر الجديد» التي تباع في الأسواق، وهي تشرح بكل وضوح أن الوقت حان لنشر العقائد السرية على الملأ وتنوير البشرية، تمهيدًا لدخول العصر الجديد الذي تكتمل فيه دورة العالم، وينتهي الصراع بين الإلهين. أما الأسرار الإضافية التي ينالها الشامانات في الغابات، أو أعضاء الدرجات العليا

في محافل الماسون، فما هي إلا تأكيد عمليّ على ما سبق، وتكريس لعلاقة أقوى بأعوان إبليس تمتد مدى الحياة، ووعدٌ لهم بالخلاص على يده عندما «ينتصر» في المعركة الأخيرة.

ومع أن هذه الحقيقة كانت تطرق قلب همام وعقله منذ عودته من ضيافة الشامان، لكنه كان يحاول التهرّب منها، فلا شيء أصعب على النفس من الوقوف أمام حقيقة انغماسها في خديعة كبرى استهلكت معظم العمر، أو حتى الاعتراف الضمني بأنها كانت ضحية أكاذيب تتعلق بالأسئلة الوجودية نفسها، ولا شيء يخفف من وقع الأسى وخزي الإحباط والفشل أفضل من نشوة اكتشاف الحقيقة، والقدرة على استدراك ما بقي من رحلة الوجود.

أنهى همام قراءة الكتاب الضخم خلال يومين، فوضعه جانبًا وعينه ما زالت تتأمل في الغلاف. كان يحاول أن يتذكّر متى كانت آخر مرة قرأ فيها كتابًا وشعر أنه غيّر حياته، بينما يصارع خاطرة لاشعورية تستنكر عليه أن يبالغ في تقدير كتاب ألّفه صديق تعرّف عليه مؤخرًا، وشاركه الطعام والشراب، ولم يكن مفكّرًا عالميًا أو أحد الحائزين على جائزة نوبل.

في صباح اليوم التالي، منح همام نفسه استراحة للتنزّه في الحديقة المجاورة كي يواصل التفكير فيما وصل إليه، وعقلُه لا يكفّ عن استحضار الذكريات والتجارب وإجراء المقارنات واستخلاص النتائج. وبعد جرعة من الطاقة التي يستمدّها جسده الهزيل من المثلّجات، عاد إلى بقعته المفضلة في مؤخرة المسجد، مسندًا ظهره إلى الجدار، ومانحًا روحه جرعة الطاقة التي تعينه على مواصلة الحياة.

بعد الظهيرة، عاد همام إلى معتكفه في غرفته الصغيرة، والشوق يسبقه إلى الكنز المعرفي الجديد في صندوق فراس. التقط قصاصة الورق التي تشرح خطة القراءة، ووجد أن الخطوة التالية هي قراءة كتاب في «براهين الوجود الإلهي»، ثم في «براهين النبوة»، ثم في «إعجاز القرآن الكريم»، فكان ينهي كل كتاب في يوم واحد.

وبعد استراحة قصيرة في الحديقة ومؤخرة المسجد، حان الوقت لقراءة تفسير موجز بالإنجليزية للقرآن الكريم في ثلاثة مجلدات، وسرعان ما انغمس في صفحات المجلد الأول، ولم يشعر بالوقت إلا عندما أنهى قراءة تفسير سورتي الفاتحة والبقرة بعد ثلاث ساعات.

لم تقتصر لذة القراءة في اكتشاف معانٍ جديدة للآيات التي كان يسمعها خلال الأيام الماضية، بل أخذ يستمتع بانفتاح أبواب معرفية يكتمل بها بناء رؤيته الجديدة للنفس والعالم والوجود.

أدرك همام أن الإنسان لا يحمل منذ ولادته خطيئة أبيه آدم كما في المسيحية، وأن البشرية لا تنقسم إلى أقلية مميزة -هي شعب بني إسرائيل المختار- وأغلبية من المغفّلين الأغيار، ولا هي ضحية صراع بين إلهين متقابلين كي تصطفّ مع أحدهما بانتظار لحظة الانتصار والخلاص. الإنسان خُلق في هذه الدنيا للامتحان فقط، وقصة خلقه وامتحانه مسجّلة بوضوح في كتاب الوحي المنشور، ويمكن للجميع فهمها، وهو لا يحتاج مخلِّصًا، ولا إلهًا يتجسد ليفديه ولا يحلّ فيه أو في شعبه وأرضه. الإنسان يرتقي بروحه كلما التزم بشريعة الإله المنزَّه، لكنه لا يتّحد بإلهه، ولا ينزل الإله إليه. والرسول المُرسل من الإله للإنسان هو إنسان أيضًا، ولا يحمل معرفة باطنية ولا أسرارًا خاصة، بل يعاني الرسول بنفسه ليسمعه الناس، ويجاهد الطغاة بسيفه،

ويكابد مشاقّ الحياة وفقد الوالدين والزوجة والأبناء، ويقضي حياته زاهدًا متقشّفًا، ومعلّمًا ومرشدًا، لا ملِكًا ولا كاهنًا.

تعاقبت الأيام سراعًا، وحشود من الغافلين تمرّ جيئة وذهابًا تحت نافذة همام، لكنه كان في شغل عن مراقبتها، فالزمن يمر في غرفته ببطء شديد، وهو يحمل في كل ساعاته ودقائقه معرفة جديدة، فتجربة القراءة التي استخرجها همام من الصندوق كانت مختلفة تمامًا عن كل ما اختبره من قبل، وحتى مفاهيم الإيمان والتدين والروحانية والعبادة التي اعتاد على الغوص في فلسفتها أصبحت الآن ألغازًا تُكشف من جديد، وكأنه اكتسب عقلًا جديدًا بمعيار مختلف للنظر والتأمل، وشعر بأن لذة التعلّم التي تتجدد مع قلب كل صفحة تعيد له بهجة ذكريات الطفولة الأولى في اكتشاف العالم.

أنهى همام قراءة كتاب التفسير كاملًا خلال أسبوع، وما كاد يضعه جانبًا حتى التقط الكتاب التالي وفقًا للخطة المرسومة. وهكذا أمضى الأيام والليالي في تقليب صفحات كتب العقيدة الإسلامية والسيرة النبوية وتاريخ الفتوحات وتزكية النفس والزهد، وهو منقطع في غرفته الصغيرة عن العالم، بينما تحلّق روحه في عالم أرحب.

الفصل السابع

بحلول منتصف شهر نوفمبر، وفي ليلة عطلة نهاية الأسبوع، وبينما كان فراس يرتّب أوراقه في مكتبه المنزلي، رنّ هاتفه مُظهرًا رقمًا غريبًا على الشاشة، فاستقبل المكالمة ليسمع شخصًا يتحدث باللغة الإنجليزية قائلًا:

- مساء الخير، السيد فراس؟

- نعم، تفضل!

- أنا كيتشي، صديق همام، سبق أن أعطاني رقمك الشهر الماضي وأخبرني أنك أعز صديق لديه.

ابتسم فراس، وقال:

- هذا لطف منه، فأنا لم أتعرف عليه إلا الشهر الماضي.. أخبِرني.. هل هو بخير؟

كان كيتشي يتحدث من داخل الحانة التي اعتاد على السهر فيها، فاعتذر عن اتصاله في وقت متأخر ومن مكان يضج بالموسيقى، ثم قال:

- لا أريد أن أتسبب لك بالقلق، لكني أحاول الاتصال بهمام منذ عدة أيام ولا يرد. دققت على باب شقته مرتين أيضًا خلال هذا الأسبوع ولم أجده، لذا اضطررت لسؤالك، لعلك تعرف أخباره!

حكّ فراس رأسه وأخذ يفكر، ثم قال:

- آخر تواصل بيننا كان قبل أسبوعين، نصحتُه حينها بطريقةٍ لمقاومة الكوابيس، وأخبرني في اليوم التالي أنه أصبح على ما يرام. حاولتُ الاتصال به مجددًا، وكان هاتفه يرن كثيرًا بدون رد.

- للأسف، صحته تدهورت كثيرًا.. لا أدري ماذا أفعل.

- حسنًا، سأحاول الاتصال به مجددًا، وإذا لم يردّ سآتي إلى تورونتو غدًا للبحث عنه.

- أشكرك، سأكثف جهدي أيضًا في البحث عنه، وسنبقى على تواصل.

- حسنًا، إلى اللقاء.

في صباح اليوم التالي، استقل فراس طائرة متجهة إلى تورونتو، ولدى وصوله إلى المطار، اتصل بكيتشي ليسأله عن آخر المستجدّات، فقال كيتشي:

- للأسف، دققتُ على باب شقته قبل قليل، ولم أجد أحدًا.

- حسنًا، لا تقلق، أنا وصلت إلى تورونتو الآن، وأظن أني أعرف مكانه، سأتصل بك لاحقًا.

اتجه فراس إلى محطة قطار الأنفاق، وهو يجرّ حقيبته صغيرة. وخلال ساعة وصل إلى باب المسجد الذي ألقى فيه محاضرته السابقة. خلع حذاءه ودخل، وسرعان ما ابتسم عندما وقع بصره على همام جالسًا في مؤخرة المسجد مغمضًا عينيه، ومسندًا ظهره للجدار في استرخاء تام.

اقترب فراس منه ببطء، ولاحظ على الفور آثار الإعياء على جسد همام، والطول اللافت لشعر رأسه ولحيته وشاربه.

قعد فراس بجانبه، ففتح همام عينيه، وعقدت الدهشة لسانه، وظن لوهلة

أنه يحلم. ابتسم فراس وقال بصوت خافت:

- سبعةٌ يظلهم الله في ظِلِّه يوم لا ظل إلا ظله.

نظر همام لصديقه بنظرة استفسار، وتابع فراس:

- ومنهم: رجلٌ قلبه معلَّق في المساجد.

لمعت دمعة في عين همام، وقال:

- حقًا؟!

- هكذا قال رسول الله.

- صلى الله عليه وسلم.

ابتهج فراس مما سمع، ثم قال:

- حاولنا الاتصال بك كثيرًا.. كيتشي قلِق عليك.

- وأنت جئت من أجلي؟

- أكيد، من أجل أخي.

- لن أنسى معروفك.

ابتسم فراس، ونظر إلى أطراف المسجد من حوله، فلم يجد فيه إلا ثلاثة أشخاص متفرّقين، ثم سأل:

- هل تقضي وقتًا طويلًا هنا كل يوم؟

- نعم، أترك هاتفي في غرفتي، وأنتظر في الصباح على الرصيف حتى يُفتح الباب عند الظهر.. لم أجد راحتي إلا هنا!

قال فراس ممازحًا:

- إذن أصبحت تعرف مواعيد الصلاة أكثر مني.. وماذا أيضا؟

- كنت أستمع إلى الصلاة وأراقب في البداية، ثم انضممت إلى الصف وصرت أقلّدهم في حركاتهم.. لكن لا أعرف ما أقول!

ضحك فراس، ووضع يده على كتف همام وقال:

- لا بأس يا صديقي، ستتعلم كل شيء.

التفت همام إليه ولمعت عيناه، وقال بحماس واضح:

- أنا جاهز.

- الأمر بسيط جدًا، ولا يحتاج إلى مقدّمات.

وفي لحظات مشحونة بالمشاعر، لقّن فراس صديقه الشهادتين، فنطقهما وهو يذرف الدموع، ثم أخفى همام وجهه بيديه ليستغرق في البكاء، وانحدرت دمعتان أيضًا على وجنتي فراس، فوضع يده على ظهر صديقه وهو يقول:

- الحمد لله على إسلامك.. هنيئًا لك يا أخي الحبيب.. كنتُ أعلم أن الله لن يضيّعك.

صدح المؤذن بالأذان لصلاة الظهر، وأخذ الصديقان يردّدان وراءه بصوت خافت، ثم نهض فراس ومدّ يده لصديقه قائلًا:

- هيا أخي المسلم، سأعلّمك الوضوء الآن، ثم الصلاة.

مسح همام دموعه ببطء، ثم نظر لصديقه بعينين حمراوين وقال:

- لن أقوم حتى تخبرني.. أتذكُر عندما كنّا في المتحف، وقلتُ لك إني لا أريد

اعتناق أي دين، وجاملتني بجواب دبلوماسي؟

وقبل أن يجيب فراس، تابع همام:

- هل كنتَ ستتركني فعلًا لأموت تائهًا وأذهب إلى النار؟!

أجاب فراس مبتسمًا:

- ما كنتُ لأتركك أبدًا، وإني لأرجو أن تكون اليوم أقرب مني إلى الله.

قام همام مستعينًا بذراع فراس، وأخذ يستمتع بكل لحظة يصب فيها ماء الوضوء على أعضائه، مسترجعًا مشهد الشلال المزيّف من ذاكرته.

قدّم له فراس درسًا مختصرًا في كيفية الصلاة، ثم وقف همام في الصف وسط إخوانه المصلّين، وشعر بنشوة روحية غامرة في صلاته الأولى، ولم تكن دموعه تكفّ عن السيلان.

خرج الصديقان بعد صلاة الظهر وسارا معًا باتجاه شقة همام، واضطر فراس لتخفيف سرعته عندما رأى صديقه يتحرك بصعوبة كالعجائز. وفي الطريق، فاجأه همام بسؤال:

- هل تذكُر عندما حدثتني عن الموت؟ وأنك تفكر فيه كل يوم؟

- نعم، وما زلتُ كذلك!

- ربما أصبحتُ مثلك.

أبدى فراس اهتمامه، وتابع همام:

- في البداية، كانت صور جثث الأطفال والشهداء في غزة تخنقني.. فلسفة الكارما والتناسخ كانت عاجزة عن التفسير والتبرير.. كنتُ سأصاب باكتئاب حادّ فوق معاناتي!

أظهر فراس ابتسامة تعاطف، وقال:

- نحن نؤمن بأن كل هذه الحياة الدنيا اختبار شامل، ثم سيلقى القاتل والظالم مصيرهما، أما الضحية فقد يعاني قليلًا في حياة عابرة، وهي تمرّ كلها مثل طرفة عين، ثم يرتاح في الحياة الأخرى ويتنعّم للأبد.

هز همام رأسه مبديًا اقتناعه التام، وقال:

- أتعلم؟.. لم يعد الموت يخيفني، بل ربما أتمناه!

ربّت فراس على كتف همام، ودعا له بالعافية وطول العمر، وسكت الصديقان برهة، ثم قال فراس:

- لطالما تساءلتُ في نفسي: هل أحسد أصدقائي الذين سبقوني للموت؟ خصوصًا أولئك الذين شهدنا خاتمتهم الحسنة، بل بعضهم نحسبه شهيدًا.

- حقًا؟!

- لا أقولها سخطًا وقنوطًا من هذه الحياة، بل أعيش في نعيم يحسدني عليه الملايين.. لكن، مهما كنتُ منعّمًا فالحياة لا تخلو من تعب.

هزّ همام رأسه وهو يفكر، وأكمل فراس:

- والقرآن يقول: {لقد خلقنا الإنسان في كبد}.. هذه قاعدة، ولا يوجد استثناء.

أُعجب همام بالآية التي سمعها، وقال

- ولا أحد ينكرها مهما كان دينه.. وعندما زعم بوذا أنه بلغ الاستنارة، قال لأتباعه إن المعاناة هي الأصل في هذه الحياة، ومن أراد تخفيف آثارها فعليه اتّباع طريقته!

ضحك فراس وقال:

- طريقة الشيطان.. خطوة خطوة!

هزّ همام رأسه موافقًا، وقال فراس وهو يفكر بعمق:

- كثيرًا ما أتذكر تلك القاعدة عندما أتعب من مهامي اليومية العادية.. من التسوق، والعمل، والروتين المملّ.. أتساءل لماذا أتمسك بهذه الحياة؟.. لماذا أشعر غريزيًا بأني محظوظ إذا عشتُ مدة أطول من بعض أصدقائي، بينما سبقوني هم إلى المصير الذي سننتهي إليه جميعًا؟!

- صحيح.. إنها غريزة حب البقاء!

- إن كان الهدف هو الجنة، فربما هم سبقوني إليها بتعبٍ أقل.. وأنا قد أصل إليها مثلهم، ولكن بعد مشقّة أكبر!

فكر همام قليلًا ثم سأل:

- هل تتمنى الموت إذن؟

- لا، لم أقصد هذا.. الحديث النبوي يقول «خير الناس من طال عُمره وحسُن عمله».

ابتسم همام، وعلّق:

- حقاً، إنها حكمة الأنبياء!

ثم أشار همام إلى مدخل المبنى الذي يسكن فيه، ودعا صديقه للدخول. وقبل أن يفتح باب شقّته، طلب من فراس ممازحًا ألا يُصدم بالمشهد الفوضوي الذي سيراه. ضحك فراس، وقال إن الفوضى هي الوضع الطبيعي لشقّة أي شاب عازب.

سارع همام لترتيب ما يمكن ترتيبه في الغرفة، وهو يقول:

- تصرف وكأنك في بيتك.. ستبيت عندي وتوفّر أجرة الفندق، وسأتمسّك بك حتى تملّ مني.

وضع فراس حقيبته جانبًا، وقعد على الأريكة وهو يضحك، ثم قال:

- ربما حتى تملّ أنت!

- إذن لن تغادر أبدًا.

ابتسم فراس، وواصل همام ترتيب الغرفة وتنظيف الأطباق المتراكمة. نهض فراس باتجاه النافذة لينظر إلى الشارع، ثم قال:

- أخبِرني، هل تخلصتَ من كل الكوابيس؟

- الحمد لله.. مع استمرار تشغيل التلاوة طوال الليل تغيّر الأمر كثيرًا.. أحيانًا يزورني المارد اللعين في أحلامي لبضع ثوان، وكأنه يُثبت وجوده فقط، ثم يهرب.

ابتهج فراس وقال:

- الحمد لله.. والآن بعد إسلامك يا صديقي سيتغير كل شيء.. ستقرأ آية الكرسي وتنام متوضئًا، وسنرى إن كان اللعين سيجرؤ على الاقتراب.

ضحك همام، وخلع سترته، ثم اتجه إلى سريره وسط نوبة سعال، وقال:

- إذن أستأذنك الآن بأخذ قيلولتي الأولى في الإسلام.. ويمكنك أن تستريح هنا..

أشار همام بيده إلى الأريكة الكبيرة (صوفا)، واستلقى على سريره وهو في غاية الإعياء. وقبل أن يهمّ بالنوم قدّم الكثير من الشكر والامتنان لصديقه على تعاطفه معه، ووقوفه إلى جانبه. ابتسم فراس مؤكدًا أنه يقوم بواجبه الطبيعي، وأن الفضل لله وحده، ثم قال:

- لا عليك يا صديقي، سأستمتع بتصفّح بعض كتبك الشيّقة حتى تستيقظ.

شغّل همام تلاوة عبد الباسط لسورة البقرة على هاتفه، ووضعه بجانب وسادته، ثم ذهب في نوم عميق خلال دقائق. أما فراس فاختار أحد الكتب من المكتبة، واتجه إلى الأريكة ليبدأ التصفّح.

وأثناء جلوسه، وقع بصر فراس على ظرف بريد ملقىً فوق طاولة صغيرة بجانبه. لم يستطع مقاومة الفضول عندما لمح اسم المستشفى في خانة المُرسِل. نظر إلى همام وتأكد من كونه نائمًا، ثم التقط الظرف وفتحه بهدوء، وأخذ يقرأ الرسالة بعناية، وكانت صدمة مؤلمة.

ذهب فراس إلى الحمّام وأغلق الباب، وأخرج هاتفه ليتصل بكيتشي. أخبره بصوت خافت أنه التقى بهمام، وأنه بصحبته الآن في شقته. ابتهج كيتشي كثيرًا، وشكر فراس على هذا الخبر السارّ، لكن فراس اعتذر منه قائلًا:

- أخشى أني سأفسد فرحتك الآن بخبر آخر سيئ.

- حقًا؟! ما هو؟

- لا أدري إن كنت تعلم أن همام مصاب بسرطان الرئة؟

- ماذا؟!

- وفي مرحلة متقدمة جدًا!

- يا إلهي!

- هل يمكنك القدوم الآن؟ أعتقد أنه من الضروري نقله إلى المستشفى بأسرع وقت.

- بالتأكيد.. سوف آتي بسيارتي حالاً!

استيقظ همام بعد ساعة، ووجد كيتشي وفراس ينتظران على الأريكتين أمام سريره. كان اللقاء سيبدو مبهجًا، لكن همام توجّس من وجومهما. سألهما إن كانا يخفيان عنه شيئًا، فرفع فراس التقرير الطبي بيده مع نظرة عتاب، وقال كيتشي:

- لا أصدق أنك أخفيت عنا أمرًا خطيرًا كهذا!

آثر همام الصمت خافضًا رأسه، وأخذته نوبة سعال، فقام إليه فراس وكيتشي ليساعداه على النهوض. وخلال دقائق كان الثلاثة في سيارة كيتشي متجهين نحو المستشفى.

في الطريق، أعرب همام عن شعوره بالحرج من صديقيه، وعن امتنانه لهذا الاهتمام البالغ، فسأله فراس مع نظرة أسى عن سبب عدم اهتمامه بفتح رسالة المستشفى منذ استلامها بالبريد قبل أربعة أشهر، فالتقرير يوضّح أنه مصاب بالسرطان منذ أربع سنوات، وينصحه باستئناف العلاج في أسرع وقت ممكن.

أشاح همام بنظره إلى النافذة، وقال:

- تلقيتُ العلاج الكيميائي سنة كاملة، ثم سئمتُ منه.

- ثم ماذا؟

- ثم قررتُ الاكتفاء بعلاج الطاقة، وحِمية الماكروبيوتك.

ضرب كيتشي جبهته بيده، وقال:

- يا إلهي!

نظر فراس إلى همام مجددًا، وقال مع ابتسامة:

- لا بأس عليك.. {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون}.

نزلت السكينة على قلب همام بهذه الكلمات، أما فراس فتذكّر قصة مؤسس إمبراطورية «آبل» التكنولوجية، العبقري الأمريكي ستيف جوبز، الذي كان معجبًا بالبوذية منذ شبابه، وعندما أصيب بسرطان البنكرياس أصر على الاكتفاء بالروحانيات والماكروبيوتك، حتى قتله المرض في منتصف الخمسينات من عمره، مع أن مرضه كان قابلًا للعلاج. احتفظ فراس بهذه القصة المشؤومة في ذهنه ولم يبح بها، ووصل الثلاثة إلى «مركز الأميرة مارغريت» لعلاج السرطان في مستشفى تورونتو العام.

استقبل الطاقم الطبي همام بإجراءات سريعة، وألبسوه ملابس النزلاء وخصصوا له غرفة. وبينما كانت الممرضة تجري له فحوصًا روتينية، وقف فراس وكيتشي مع الطبيب الاستشاري خارج الغرفة، فسألهما:

- لماذا تأخرتم في إسعافه؟!.. أرسلنا له تقريرًا في شهر يوليو، ونصحناه بضرورة مراجعتنا في أسرع وقت!

قال فراس بنظرة حزن:

- لم نقرأ التقرير إلا اليوم يا دكتور.

وقال كيتشي:

- هو يعيش وحيدًا، وأخفى عنا أنه مريض أصلًا!

أبدى الطبيب استياءه وقال:

- للأسف، انقطع عن العلاج منذ ثلاث سنوات، ونحن حاولنا التواصل معه أكثر من مرة لإقناعه بالعودة لاحتواء المرض، وقبل أن يخرج عن السيطرة.

نظر فراس وكيتشي لبعضهما بقلق، وقال فراس:

- والآن يا دكتور؟!

أجاب الطبيب وهو ينظر للملف بين يديه:

- سنبقيه تحت المراقبة.. ولا بد من إعادة الفحوص لنحدد درجة مرضه حاليًا..

ثم نظر إليهما، ورفع كتفيه قائلًا:

- سأكون صريحًا، على الأرجح.. فات الأوان!

قال كيتشي مذعورًا:

- ماذا؟! ماذا تقصد دكتور؟

ردّ الطبيب:

- أنا آسف!.. سنبذل كل جهدنا.. وأنتم أيضًا، قدّموا له مشاعر الحنان التي يحتاجها.

خفض فراس رأسه وهمس:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

أما كيتشي فأصابه الجزع، وأخذ يتمتم غاضبًا:

- لا.. لا.. لا أصدّق هذا!

ربّت الطبيب على كتف كيتشي مع نظرة تعاطف، واستأذن بالانصراف، ثم أمسك فراس بكتفَي كيتشي وطالبه بالهدوء كي لا يُحدث جلبة ويُفزع همام.

استعاد كيتشي هدوءه بعد دقائق، وسأله فراس عن عائلة همام وكيف يمكن الاتصال بهم، فأخبره أن والد همام اختفى من حياته بعد انفصاله عن أمّه، ولم يعد يعرف عنه شيئًا، أما الأم فتكفّلت بتربيته حتى أصبح شابًا والتحق بالجامعة، وبعد سنة واحدة فارقت الحياة.

أبدى فراس شعوره بالأسى، وأدرك أنه لم يبق لهمام سوى صديقيه، وأن الواجب يستلزم البقاء بجانبه في هذه المرحلة الصعبة.

استكمل فريق المستشفى الفحوص الطبية، واستقر رأي الأطباء على أن السرطان قد استشرى في رئتي همام وجسده، ولم يعد علاجه مجديًا، لكنه سيبقى تحت المراقبة في تلك المرحلة الحرجة.

استقبل همام الخبر بصبر وثبات، وقرّر فراس وكيتشي أن يتناوبا على مرافقته في غرفته بالمستشفى قدر المستطاع، وأن يبذلا جهدهما للترويح عن نفسه وتسليته.

كان جسد همام يزداد نحولًا وضعفًا كل يوم، ووجهه أصبح شاحبًا، وصوتُه يخفت ويتلاشى تدريجيًا. أما قلبه فكان عامرًا بسكينة وطمأنينة لم يعهدها في حياته، ولسانه لا يكاد يفتر عن ذكر الله معظم أوقاته، وسمّاعة هاتفه لا تكف عن بثّ صوت القارئ عبد الباسط الشجي على مدار الساعة.

في مساء أحد الأيام، كان فراس غافيًا وهو جالس على الكرسي المجاور للسرير، وهمام يتأمل في مشهد الغروب من النافذة خلف فراس. استعاد همام ذكرياته بحلوها ومرّها، وأخذ يفكّر في الانعطافة الهائلة التي قلبت مسار حياته قبل بضعة أيام.

التفت همام إلى الجانب الآخر، وأخذ يتابع نشرة الأخبار على شاشة معلّقة قرب سقف الغرفة. انقبض قلبه مما يتعرض له أهل غزة من قصف وحشي على مرأى العالم، ولم يستطع منع نفسه من البكاء.

انتبه فراس من غفوته على صوت نحيب صديقه، فقام فزعًا وهو يسأله عما أصابه. مسح همام دموعه وابتسم خجلًا، وقال:

- لا تقلق أخي الحبيب، أنا بخير. إنما أبكي على من يُقتلون تحت الأنقاض.

نظر فراس إلى الشاشة بحزن، وعاد إلى الجلوس ليتابع الأخبار. وبعد انتهاء النشرة، نظر إليه همام وأشار بيده كي يقترب منه، فأسرع إليه فراس، وقال همام بصوت أقرب إلى الهمس:

- ليس لدي الكثير من المال، لكني سحبت كل رصيدي من البنك، ستجد ما بقي منه نقدًا في خزانة الملابس في شقتي.

- بارك الله في مالك أخي.

- أوصيك بالتبرع بمدخّراتي لأهلنا في غزة..

أخذه السعال وصعوبة التنفس، ثم أكمل:

- لو كنتُ بكامل قوتي.. كنت سأخرج للتظاهر من أجلهم، وأجمع التبرعات بنفسي، أو أفعل أي شيء...

عاد السعال بحدة إلى صدر همام، وقال له فراس مطمْئنًا:

- الله يتقبل منك نيّتك يا صاحبي.. لا تُرهق صدرك بالكلام.. استرح الآن.

- أما أوراقي ومذكّراتي وخلاصة تجاربي ورحلاتي فأتركها لك يا صديقي.. ستجدها في خزانتي أيضًا.. وربما تعثر فيها على ما يثير اهتمامك.

هزّ فراس رأسه بامتنان وأسى، وشعر بغصّة الألم في حلقه فهمس بكلمة شكر خافتة، ثم قال همام:

- ساعدني لأنهض قليلًا.. كي أصلي المغرب.

- لا عليك.. يمكنك الإيماء برأسك وعينيك فقط.

قعد فراس على الكرسي، وأخذ يراقب همام وهو يصلي بالإيماء. انحدرت دمعتان على وجنتي فراس، ولم يدرِ ما يعتمل في قلبه من مشاعر، وكأنها خليط من الامتنان لله، مع شيء من الحزن، واجتهاد في مغالبته بالرضا والتسليم.

في مساء الثالث والعشرين من نوفمبر، كان فراس وكيتشي بصحبة همام في غرفته بالمستشفى، وجهاز تخطيط القلب يصدر رنينًا منتظمًا، بينما يشاهد الثلاثة آخر أخبار غزة على شاشة التلفزيون.

كان انتشار السرطان في جسد همام قد بلغ ذروته، فأصبح نحيلًا للغاية، لكن فراس لم يكن يملّ من التأمل في وجه صاحبه، بلحيته الطويلة ووجنتيه الغائرتين، وكأنه يرى نورًا يشع منه.

سمع الثلاثة صوت هتاف جماعي يتردد من مكان بعيد، فاتجه كيتشي إلى النافذة وفتحها قليلًا بالرغم من برودة الطقس. ابتسم همام وهو يستمع لهتاف المتظاهرين وضربهم على الطبول، إذ كانوا يرددون نفس الشعارات التي هتف بها سابقًا نصرةً لأهل غزة، ولتحرير فلسطين.

اقترب فراس من همام وهو مستلقٍ على سريره، وأخذ يد صديقه بين يديه. أومأ له همام بعينيه كي يقرّب أذنه منه، فانحنى فراس مصغيًا إليه، وهمس له همام قائلًا إنه كان يحلم بأن تكون آخر أسفاره في أقطار الأرض إلى فلسطين، وأن يختتم رحلاته في البحث عن الحكمة برحلة للرباط في المسجد الأقصى.

رفع فراس رأسه مع ابتسامة يغالب فيها البكاء، وعجز عن النطق بتعليق مناسب، فاكتفى بهز رأسه مع نظرة فخر.

التفت همام إلى شاشة التلفزيون مجددًا، وتابعه فراس وكيتشي في الالتفات. كانت الشاشة تعرض مشهدًا لرجل من غزة، يرتدي عمامة ملونة، وله لحية رمادية طويلة. يحمل بين ذراعيه جثة طفلة بريئة، وشعرها مجدول في ضفيرتين. كان الرجل يبتسم لحفيدته المتوفاة، يفتح عينيها بأصابعه، ويقبلهما، ثم يمسح رأسها بلحيته الكثة، ويداعبها وكأنها ما تزال حيّة تلعب.

نظر هذا الرجل الملتحي إلى الشخص الذي يصوّره من خلف الكاميرا، وأخذ يشرح للمصوّر وهو مبتسم مَحبّته لحفيدته، وكيف كان يتفانى في إسعادها وتلبية طلباتها. وقبل أن يسلّمها للمسعفين كي يسجّوا جثتها، قال بثبات عجيب وابتسامة آسرة:

- هذي روح الروح.

دمعت عينا فراس، وأجهش كيتشي بالبكاء كطفل صغير من هول المشهد، أما همام فكان يبتسم!

شخصَ همام ببصره إلى الأعلى، وصدى كلمات الرجل الفلسطيني يتردد في أذنيه: «هذي روح الروح»، ثم بدأ يرى شريط الذكريات بالصوت والصورة في سرعة خاطفة.

رأى همام نفسه طفلًا يحبو في عمر سنتين، ثم جالسًا على مقعد الصف الأول بالمدرسة، ثم في سن العاشرة وهو يسقط على الأرض أثناء لعبه بالكرة، وبعدها لقطة له وهو في سن الخامسة عشرة ويجرّب أول مشروع للبرمجة على الحاسوب، ثم رأى نفسه في حفل التخرج من الجامعة بالعباءة السوداء، تليها لقطة لصديقته أوليفيا وهي تبكي وتسأله إن كان يحبّها، ثم فجأة أصبح حليق الرأس وبملابس راهب بوذي في معبد بتايلاند، وبعدها ظهر له وجه المارد وهو يتألم أثناء تجربة الصلاة، وأخيرًا رأى نفسه ينطق بالشهادتين في المسجد بجانب فراس.

كان فراس ما يزال قابضًا على يد همام، وشعر بسبابة همام تنتصب، فنظر إلى وجهه ورآه شاخصًا ببصره إلى الأعلى، وعلى وجهه ابتسامة ساحرة.

ومن غير تفكير ولا تأخير، أخذ فراس يردّد الشهادتين بصوت مسموع، ويكرّرهما من دون توقف، فتحركت بهما شفتا همام حركة خفيفة.

أصدر جهاز التخطيط رنينًا متصلًا، واندفع الطاقم الطبي إلى الغرفة بسرعة، تراجع فراس إلى الخلف، تاركًا الطبيب والممرضات ينفذون إجراءات الإنعاش، أما كيتشي فانهار من البكاء.

رأى همام ملاكًا أبيضًا في أجمل صورة يقترب منه، وما هي إلا لحظات حتى انفتحت نافذة من نور ساطع في سقف الغرفة، وأخذت تتّسع تدريجيًا. لم يلبث أن انطلق به الملاك البهيّ نحو النافذة التي بدت مدخلًا لنفق يمتد إلى السماء، فنظر إلى الأسفل، ورأى جسده مستلقيًا على السرير بلا حراك، والفريق الطبي يثير جلبة حوله، وكيتشي يضع وجهه بين يديه وهو جالس على الكرسي وينتحب بصوت عال، ثم نظر إلى فراس، فرآه ينظر بابتسامة وهدوء إلى الجسد المستلقي، ويهمس بصوت خافت:

- {يا أيتها النفس المطمئنة...}.

ازداد النور سطوعًا حتى كاد يغمر الغرفة، وهمام يصعد في جوف النفق، والملاك الجميل يبتسم له. نظر مرة أخرى إلى الأسفل، ووجد الطبيب يصعق جسده بالكهرباء، وفراس يهمس:

- {ارجعي إلى ربك راضية مرضية...}.

التفّ النور حول همام من كل الجهات، وواصل صعوده برفقة الملاك. تلاشى مشهد الغرفة من تحته، وكان آخر ما سمعه منه هو كلمات فراس:

- {فادخُلي في عبادي.. وادخُلي جنّتي}.

وانطلق الملاك حاملًا همام في بحر من النور نحو السماء.

الفصل الثامن

كان الصعود رحلةً روحيةً فريدة، لم يذُق همام تجربة تماثلها طوال حياته.

انتهى به الأمر إلى فضاء واسع يملأ الأفق، أرضه مفروشة برمال بيضاء ناعمة، تلمع كحبيبات الألماس، وسماؤه تتموج بألوان زاهية فاتحة، وهو حافل بأشخاص حِسان يرفلون في ملابس بيضاء ناصعة، ويتجولون بين حدائق غنّاء في غاية الجمال.

وجد همام أنه استعاد صحته ونشاطه، ولم يعد يشعر بالإعياء والألم. شعره ولحيته بنفس طولهما، لكن جسده لم يعد نحيلًا. يرتدي ثوبًا فضفاضًا ناصع البياض، ويشع منه ضوء بهيّ.

أخذ يمشي بين الناس مبتهجًا، وهم يبادلونه الابتسام والتحية. كانوا من كل الأعمار والأعراق والأجناس، وبعضهم أطفال، وجميعهم مرتدون عباءات بيضاء جميلة، والنساء فيهم محتشمات. بعضهم جالس في جماعات، وبعضهم واقف مع أقرانه، وفيهم من يطير متنقلًا في الفضاء الواسع.

فجأة اقترب من همام رجل ستيني بلحية رمادية، ملامحه عربية، وسأله بلهفة:

- همام!.. أهذا أنت؟

تأمل همام في وجه الرجل قليلًا، ثم ابتسم وقال مندهشًا:

- جدّي؟!

أخذ الرجل همام بين ذراعيه، وضمّه بحرارة، وقال:

- نعم يا حبيبي.. أنت همام.. وأنا جدك!

تجمّع بعض الرجال حولهما وشاركاهما بهجة الموقف، وأخذ الجدّ يمسح رأس

حفيده ويتأمل وجهه بحنان وشوق، ثم قال همام:

- لم تتغير كثيرًا يا جدي.. عرفتك في الصور فقط.. كنتَ تعيش في فلسطين، ولم نلتق في حياتنا.

هزّ الجدّ رأسه مبتسمًا، وحمِد الله على لقائه بحفيده، وأخبره أنه أول شخص من سلالته يلتحق به، ثم أمسك يده وأخذ يتجول معه، والبعض من حولهما يقدّمان التهنئة على اللقاء، ويتحدثون عن التشابه بين الجدّ وحفيده.

نظر الجدّ لهمام مرة أخرى وهما يسيران، وقال مبتسمًا:

- يبدو أنك رحلتَ صغيرًا يا ولدي..

ابتسم همام مؤيّدًا، وتابع الجدّ:

- الحمد لله على سلامتك.. المهم أنك معنا هنا.

وقبل أن يُمطر الحفيد جدّه بالأسئلة، بادر الجدّ بسؤال همام عن أبيه. أطرق همام وقال إنه لم يلتقِ بوالده منذ فارق أمه وهو طفل في الثامنة، ولم يعد يعرف عنه شيئًا. كان قد ترك بعض المقتنيات والذكريات، بما فيها مجموعة صور قديمة، ومنها تعرّف همام على عائلة أبيه في فلسطين، وعلى جذوره التي كان يحنّ إليها في خياله من دون أن يكتشفها.

ظهر الحزن على وجه الجدّ، وأخذ يفكر في مصير ابنه الذي هاجر إلى كندا شابًا، ثم أخبر عائلته بنبأ زواجه وإنجابه طفلًا هناك، لكن وتيرة تواصله كانت تقلّ تدريجيًا، حتى انقطعت أخباره تمامًا.

وبينما كان الجدّ شارد الذهن يسترجع الذكريات، نظر همام من حوله، وسأل:

- أين نحن يا جدي؟.. ومن هؤلاء؟!

تنهّد الجدّ، ونظر من حوله وأجاب:

- هؤلاء مثلي ومثلك.. أرواح المؤمنين، ولله الحمد.

تلفّت همام يتفحّص المكان والناس مرة أخرى، وسأل بنبرة حائرة:

- هل هذه الجنة يا جدي؟!

ابتسم الجدّ، ونظر لحفيده قائلًا:

- بعضنا يطير فيها أحيانًا يا حبيبي.. لكن، ما زلنا في عالم البرزخ، وننتظر البعث والحساب.

نظر الجدّ إلى الأعلى، وطار في الهواء، وأشار لحفيده فانطلق خلفه. ابتهج همام وهو يحلّق وينظر للعالم الواسع من حوله، ثم قال:

- إنه أجمل من كل ما رأيتُه من قبل في حياتي!

ثم أضاف مع جرعة اندهاش أكبر:

- وأجمل حتى من العوالم الموازية!

أبدى الجدّ موافقته بابتسامة، وواصل الطيران والتجول، وهمام يلحق به لمسافات بعيدة، ثم قال الجد:

- لا بد أنك اجتزت الامتحان الأول في القبر.

- نعم، الحمد لله. كانا ملَكين رائعين يا جدي.. أخبراني أني خفيف بلا أي ذنب.

تهلّل وجه الجد، وأبدى سعادته قائلًا:

- هذا رائع.. كيف فعلتَها يا ولدي؟

ابتسم همام ابتسامة خجولة وقال:

- أسلمتُ قبل انتهاء الاختبار بأيام فقط.

ضحك الجد ضحكة طويلة، وقال:

- أحسنت، أحسنت يا ولدي.

مرّت بهما مجموعة من الناس يحلّقون في السماء، وابتسموا لهما مع التحية، وقال الجدّ لهمام:

- كما ترى، كل من نجح في الامتحان الأول يأتي إلى هنا. ومن مات وعليه دَين أو خُتم له بسوء فلا يأتي إلينا.

أبدى همام دهشته، وتابع الجد:

- الحمد لله، نحن اجتزنا الامتحان في أول ليلة. لكن هناك من عليه المرور بمراحل للتطهير قبل أن يأتي، أو ربما يظل حبيسًا، ونأمل أن نراه في الجنة.

أبدى همام اهتمامه بما يسمع، وسأل جده عن مكان أرواح غير المؤمنين، فقال إن مصيرهم بين يدي الله، ولا يلتقون بهم. ثم وقع بصر همام على مجموعة من الكائنات تشبه المارد الذي يعرفه، لكن وجوههم جميلة، وملابسهم بيضاء نقية، فصاح مندهشًا:

- يا إلهي!.. إنهم هنا أيضًا!

- نعم، إنهم إخوتنا المؤمنون من الجن.

ثم نظر الجد إلى همام وسأله متعجّبًا كيف عرف الجن، فالناس لا يرونهم في الحياة السابقة. ضحك همام، ووعد جدّه بأن يخبره بقصته الكاملة لاحقًا، ثم قال الجد:

- حسنًا، تعال لأعرّفك على أقاربك وأجدادك الآخرين، ستحبهم كثيرًا.

على مقعد الحديقة المعتاد في تورونتو، كان فراس جالسًا لوحده، مرتديًا معطفًا سميكًا، وحول رقبته وشاح بألوان الكوفيّة الفلسطينية، وهو يتأمل المكان وعلى وجهه ملامح الحزن.

رن الهاتف في جيبه، ووجد على الشاشة رقمًا غريبًا، وعندما استقبل المكالمة وجد فتاة تسأله باللغة الإنجليزية:

- هل هذا السيد فراس؟

- نعم، تفضلي!

- أوه.. أخيرًا.. كنت أبحث عن رقمك منذ أمس، أنا أوليفيا، صديقة همام.

رحّب بها بنبرة حزن، وقالت إنها قررت الاتصال به بعدما بلغها أنه كان من أعز أصدقاء همام، وأنه رافقه في أيامه الأخيرة، وأيضًا عندما فارق الحياة.

أخذ كلاهما يغالب البكاء، ثم قالت:

- علمتُ بالأمس أنكم انتهيتم من دفنه قبل ثلاثة أيام، وعلمتُ أنه عاد إلى الإسلام قبل رحيله.

مسح فراس دموعه، وقال مع ابتسامة امتنان:

- هذا صحيح، الحمد لله.

- الحمد لله.. الحمد لله.. أريد أن أخبرك عن سرّين صغيرين يا سيد فراس، هل تسمح لي؟

- بالتأكيد، تفضلي!

- السر الأول: كنت أحبّه كثيرًا، وانتظرتُه طويلًا كي يبادرني بفكرة الزواج، لكنه كان مشغولًا دائمًا بأسفاره وروحانياته، وربما كان لا يريد أن يورّطني بالارتباط قبل أن يجد فرصة للاستقرار.

- هذا صحيح، لقد أخبرني عنك بالفعل، وقال إنه لم يكن يريد أن تشقَي معه.

بكت أوليفيا بحرقة، ولم تستطع النطق، فتابع فراس:

- كان شابًا نبيلًا وطيبًا للغاية، لا يريد أن يجرح قلب أحد.

مسحت دموعها، وقالت:

- السر الثاني: أريد.. أريد اللحاق بهمام.

نهض فراس من مقعده مصدومًا، وقال

- ماذا؟! هل تقصدين الانتحار يا آنسة؟!

أطلقت أوليفيا ضحكة خفيفة لا شعوريًا، واعتذرت عن سوء تعبيرها، وأوضحت أنها لم تقصد اللحاق بهمام إلى الموت، ثم طلبت من فراس أن

يمنحها فرصة للقاء كي تشرح له مقصدها. رحّب فراس بالفكرة، وتبيّن له أنها في مكان قريب، فاتفقا على قدومها إلى الحديقة، ووصلت بالفعل خلال ربع ساعة.

قعدت أوليفيا على طرف المقعد، حيث كان يستريح همام ويتأمّل، وبدأت تشرح لفراس تعرّضها لصدمة عاطفية كبيرة منذ بدء القصف الوحشي على المدنيين في غزة، وكيف انقلبت حياتها مع توالي صور الشهداء.

انفلتت دموعها وهي تتحدث عما تركتْه مشاهد الصبر العجيب لأهل غزة في قلبها، فلم تكن تتخيل أن يقوى أي أب أو أم من هذا العالم على حمل أشلاء أطفالهم بين أيديهم، وهم يردّدون عبارات التوكل على الله!

ثم قالت إن تلك المَشاهد دفعتْها للبحث عن سرّ هذا الصمود الأسطوري، وسرعان ما تيقّنت من أنه الإسلام الذي يؤمنون به. فابتسم فراس وسألها إن كانت تعرف معنى كلمة الإسلام باللغة العربية، ثم أوضح لها أنه التسليم والاستسلام، فالمسلم يُسلِم نفسه لخالقه، راضيًا بعبوديته بين يديه، ومقيّدًا نفسه بأوامره ونواهيه، ومستسلمًا لقضائه وقدره.

أُعجبت أوليفيا بهذا المعنى، وذكرت لفراس أن اكتشافها لبذرة الحقيقة دفعها للبحث عن ثمراتها، فقرأت ترجمة للقرآن خلال أسبوعين، وأخذت تحدّث نفسها باعتناق الإسلام.

ابتهج فراس بهذه النتيجة، وسألها عما حدث بعد ذلك، فقالت:

- ثم جاءت الصدمة، وتوفّي همام، لكن الخبر السارّ الذي برّد قلبي أنه اعتنق هذا الدين قبل أيام.

تنهّد فراس بعمق، وأخذ يفكر في تلك التوافقات العجيبة، ثم قالت أوليفيا:

- لم نكن نتواصل منذ استقال من وظيفته، ولم أكن أعرف عن أخباره شيئًا. أبلغني كيتشي بما حدث بعد رحيله.

دعا فراس له بالرحمة، ثم نظر إليها وقال:

- إذن تريدين اللحاق به إلى الإسلام الآن!

هزّت أوليفيا رأسها وهي تمسح دموعها، فهنّأها فراس على قرارها، وبشّرها بما أعدّه الله للمؤمنين من نعيم مقيم، وبما رآه من مبشّرات حُسن الخاتمة لهمام.

غمرت السعادة قلب أوليفيا، وظهر الحماس جليًا على وجهها. نظر فراس إلى الساعة في يده، ثم أشار إلى المسجد المقابل للحديقة، وقال:

- في هذا المسجد، نطق همام بالشهادتين، والآن ستقام فيه صلاة المغرب ويزدحم بالمصلين، وستقومين معي لتلحقي بهمام في المكان نفسه.. ما رأيك؟

وافقت أوليفيا على الفور، وسارع فراس إلى ترتيب الأمر مع إمام المسجد، فتولّت زوجة الإمام تجهيز أوليفيا بعباءة وحجاب ساتر، ثم وقفت بجانبها عند المحراب بعد أداء الصلاة، وقام فراس ليحدّث المصلين عن قصتها مع شهداء غزة، وقال:

- أختنا لم تستسلم للنوم اللذيذ، ضميرها الحي لم يكن ليقول: دعهم وشأنهم، فهؤلاء مجرد أشخاص غرباء يموتون تحت الأنقاض في مكان بعيد من هذا العالم. أختنا قررت أن تبحث وتسأل وتتعلم، وعندما وجدت نفسها أمام الحقيقة لم تستطع أن تتجاهلها. لذا هي تقف بيننا الآن لتعلن إسلامها،

وستشهدون الآن على نطقها بالشهادتين.

ردّدت أوليفيا الشهادتين وهي تذرف دموع السعادة، وتعالى هتاف التكبير من المصلّين، ثم انصرفت مع زوجة الإمام لتتلقى أول دروسها في الطهارة والصلاة، وبقيّة واجبات الإسلام.

في عالم البرزخ، كان همام جالسًا مع جدّه ومجموعة من أقاربه، معظمهم كبار في السن، وكانوا يسألونه عن أسماء بعض أقاربهم الذين عاصروهم، ليتحققوا من رحيلهم عن الدنيا، إذ لم يلتقوا بهم في البرزخ بعد.

أجاب همام بأنه لا يعرف أحدًا من أقاربه، فقد وُلد في بلاد المهجر، ولم يزُر بلاد أبيه طوال حياته، وانفصل والداه عن بعضهما وهو طفل، ثم اختفى أبوه وانفصل هو عن أمه عندما التحق بالجامعة كما يفعل الكثير من الشباب في الغرب.

تحسّر أحد الجالسين على أخيه الذي كان يسأل عنه، وقال لا بد أنه مات، ولو نجح في الامتحان كان سيأتي إليهم. وأخذ البقية يواسونه، وتفاءلوا باحتمال أن يكون أخوه قد حُبس عنهم قليلًا حتى تبرأ ذمته، ثم ينجو.

انشغل الرجال بأحاديثهم، والتفت الجد إلى همام مبتسمًا، ثم انسحبا من المجلس، وأخذا يتجولان على الرمال البيضاء، ثم بدأ الجد يستفسر عن أوضاع فلسطين، وما آلت إليه القضية. شعر همام بحرج شديد، ولم يعرف

من أين سيبدأ في سرد قصة المأساة، فأهل غزة يُبادون، والعالم الإسلامي كله يتفرج!

استمع الجد إلى همام بملامح باردة، ثم أكد لحفيده بأنه ليس متفاجئًا، وأنه كان يتوقع المزيد من المآسي لأمة الإسلام قبل أن تشرع في الاستيقاظ. هزّ همام رأسه مؤيّدًا جده، ثم نظر إلى جماعة الرجال الذين جالسوهم وسأله عن كيفية رحيلهم عن الدنيا، فقال:

- كلهم رحلوا بموت طبيعي، أما الذين استشهدوا.. في النكبة، والثورة، والحروب المتتالية، وأسرى السجون...

تنهّد الجد، واستفسر همام:

- أين هم يا جدي؟

- هنيئًا لهم..

نظر إلى الأعلى، وأكمل:

- يحلّقون في الأعالي، وفي عوالم رحبة لا نصِل إليها.. نلتقي بهم أحيانًا، لكنهم يأوون إلى قناديل معلَّقة تحت العرش!

رفع همام رأسه ناظرً للأعلى بدهشة وانبهار، وقال:

- حقًا، هنيئًا لهم!

على هذه الأرض، مرّت عجلة الزمن، وأقبل عام ٢٠٤٤، حيث تبدّلت أشياء كثيرة، ومنها انتقال فراس إلى لندن ليعمل أستاذًا زائرًا في جامعة «سواس»، وينشغل بكتابة بحث علمي في المعتقدات الباطنية لدى بعض فلاسفة التصوّف الإسلامي.

أنهى عمله في الكلية مساء أحد الأيام، وخرج يسير على قدميه باتجاه مقر إقامته. كان يرتدي ملابس صيفية، وحذاءً مناسبًا للسير مسافات طويلة. ومع أن لحيته البيضاء تشير بوضوح إلى تقدمه في السن، إلا أنه كان حريصًا على ترويض جسده باستمرار.

مرّ فراس أثناء سيره بميدان «الطرف الأغرّ» (Trafalgar Square) في وسط لندن، حيث يتواعد العشاق عند نوافير المياه، ويلتقط السيّاح الصور أمام التماثيل الفنية الجميلة.

كان كل شيء مألوفًا، لكن الجديد في هذه المرة هو تجمّع نحو مئة شاب وفتاة بملابس رياضية خفيفة، يتوزّعون في صفوف مرتبة، وهم جالسون في «وضعية اللوتس» لممارسة اليوغا بحفلة جماعية. وفي المقدمة مدرّب يقود الفعالية، ويقدّم التوجيهات عبر مكبّر الصوت.

كانت هناك مكبّرات ضخمة للصوت في طرفي الساحة، تبثّ تسجيلًا لترانيم هندوسية، وعلى خلفية موسيقى هندية تقليدية.

توقف فراس ليراقب المشهد، ورأى عددًا من المارة يتوقفون مثله، ثم لا يلبث بعضهم أن يسارع للانضمام إلى الحشد، وينقاد لتعليمات المدرّب بكل سلاسة.

لاحظ فراس لوحة كبيرة معلقة أمام المدرب، وكُتب عليها «اليوم العالمي

لليوغا». تذكّر حينئذ أن الهند تمكنت من إقناع الجمعية العامة للأمم المتحدة قبل ثلاثين سنة على اختيار الواحد والعشرين من يونيو في كل عام للاحتفال بهذا اليوم العالمي، ثم حدّث نفسه:

«ما أذكى إبليس! كيف استطاع إقناع المليارات من بني آدم بعبادته في الخفاء وهم لا يعرفونه أصلاً؟! وإلى درجة اتخاذ المنظمات الدولية من عبادته موسمًا للتآخي فيما بينهم!».

نظر فراس من حوله ليتفحّص الوجوه، ولاحظ وجود نسبة لافتة من ذوي الأصول الهندية. تذكّر أيضًا أن هذه البلاد التي احتلّت الهند في الماضي قد تولّى رئاسة حكومتها شاب هندوسي في السنة التي تعرف فيها على همام، وما زال أبناء قومه الهندوس يتغلغلون في حكوماتها كما فعل من قبلهم اليهود أيضًا.

رفع فراس رأسه، ونظر إلى السماء، وقال بصوت خافت:

«يرحمك الله يا همام.. أين أنت الآن يا تُرى؟».

أعاد فراس النظر إلى المجموعة، ورأى المدرّب يستلقي على بطنه، ويرفع ساقه للأعلى ببطء، طالبًا من الجميع أن يقلّدوه كي يستقبلوا الطاقة من الأرض ويبثّوها إلى السماء، فامتثل الحشد على الفور. ندّت عن فراس لاشعوريًا ضحكة ساخرة، وتابع السير في طريقه.

في عالم البرزخ، كان همام يطير في الفضاء الواسع، ويتأمل في الجمال الذي لا تملّ منه النفوس، ثم استلقى على فراش من الغيوم المتموّجة التي تطوف في السماء، وكأنها قطع من القطن المنفوش. وأخذ ينظر إلى الأسفل وهو يفكر:

«صديقي فراس.. تُرى أين أنت الآن؟».

أقبل الجدّ محلّقًا في موجة من الألوان الزاهية، ورأى حفيده غارقًا في تأملاته، فسأله عمّا يشغل باله، فقال همام:

- أفكر في أصدقائي.. اشتقت لهم.

ثم نظر إلى جدّه، وسأله بإلحاح:

- ألا يمكنني التواصل معهم؟

ابتسم الجد، وتابع همام:

- أظن أنهم في غاية الشوق لاكتشاف ما نحن فيه.

- ليت الأمر بيدنا يا ولدي، كلنا نشتاق لأحبائنا، ونتمنى إرسال الرسائل.

انساب الجد محلّقًا في الفضاء كما يسبح السمك في الماء، ولحق به همام وهو يسأل إن كانت هناك أي فرصة للتواصل، فقال الجد:

- نعم، قد نحظى ببعض الفرص النادرة.

- هذا رائع يا جدي، مثل ماذا؟

فكّر الجد قليلًا، ثم قال:

- مثل شخص تُحبس روحه بسبب دَين لم يؤدّه، فيُعطى فرصة للقاء أحد أقاربه الأحياء في منامه، ويوصيه بقضاء الدَّين حتى تبرأ ذمته.

أبدى همام تفاؤله بما سمع، وقال الجد:

- وهذا من رحمة الله بعباده، لكن الفرص ليست متاحة للجميع يا بني.

هز همام رأسه موافقًا، ونظر إلى الأسفل مجددًا، والأمل بفرصة نادرة يزيده شوقًا.

في ساعة متأخرة من إحدى ليالي لندن، نهض فراس من فراشه وهو يتمتم بذكر الله. أشعل ضوءًا خافتًا، وتوضّأ، ثم اتجه إلى سجادة الصلاة بجانب مكتبه، وبدأ صلاة التهجّد.

كان الهدوء يعمّ المكان، ولا يُسمع إلا همس فراس وهو يتلو ويذكُر ويدعو في صلاته، حتى إذا وضع رأسه في السجدة الأخيرة، حمِد الله وأثنى عليه، ثم أخذ يدعو متضرّعًا بكل خشوع:

- يا رب.. يا خير من سُئل، وأجود من أعطى، وأكرم من عفا، وأعظم من غفر، وأعدل من حكَم، وأوفى من وعد.. أسألك يا أرحم الراحمين.. أن تجمعني بصديقي همام في مستقر رحمتك..

ومضى فراس في دعائه، مبلّلًا سجادته بالدموع. ثم رفع رأسه، وختم صلاته، وبقي في مجلسه يذكر الله بانتظار الأذان لصلاة الفجر، لكن النعاس غلب عينيه، فاستلقى على السجادة بهدوء، وذهب في غفوة وهو يردد في عقله الباطن آخر آية كان يتلوها قبل الركوع: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم

تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون}.

كان همام مستلقيًا في السحَاب، ينظر إلى الأسفل متفكّرًا فيما يفعله فراس. وإذ بصوت عميق يناديه باسمه، فنظر من حوله مندهشًا، ثم أكمل المُنادي:

- قد أُذِن لك الله بلقاء صاحبك.

ابتهج همام كثيرًا، وحمِد الله، ثم رأى شعاع نور ينطلق نحوه من الأسفل، فطار باتجاهه، وإذ بالنور ينبثق من باب يزداد اتساعًا كلما اقترب منه.

خرج همام من الباب، وسرعان ما وقع بصره على فراس. كان يقف على أرض رملية بيضاء لامعة، وسط غابة زاهية الألوان، مرتديًا ملابس النوم، وهو يتلفّت حوله والدهشة والحيرة تملآن ملامحه.

تحقّق اللقاء، وغمرت السعادة قلبيهما. ووقف همام أمام صديقه على بعد خطوات قليلة، وكلاهما يتأمل الآخر ولا يكاد يصدّق.

تعانق الصديقان بكل شوق، ونظر همام إلى بياض الشعر في رأس صديقه ولحيته، وقال مندهشًا:

- ما أسرع تقدمك في السن يا صديقي!.. كيف حدث هذا؟!

ابتسم فراس ووضع يده على رأسه، ثم أجاب:

- إنها عشرون سنة يا صديقي!

ازدادت دهشة همام، وقال:

- عجبًا!.. ما أسرع مرور الزمن عندكم! كنت أحسبها يومًا أو بعض يوم فقط!

ضحك فراس ضحكة خفيفة، وهنّا صديقه على ما هم فيه من راحة وهناء، ثم أخذ يتأمل وجهه وبدنه، ويبدي إعجابه البالغ بقوّته وصحّته، وبالنور الذي يشع منه. ثم سأل:

- هل أنت في الجنة يا صديقي؟

- نزورها أحيانًا، نحلّق في سمائها، ونستبشر بالخلود فيها.. لكن لم نُحاسَب، ولم توزن أعمالنا بعد...

انحدرت دموع السعادة من عيني فراس، وهنّا صديقه مجددًا على حُسن العاقبة، وأخذ يستفسر منه عما يراه في عالمه، لكن همام كان يتهرب من الإجابة وهو يعرف فضول صديقه لاكتشاف عوالم الغيب، ثم أجابه بصراحة بعد إلحاح:

- لا يمكنني أن أبوح لك يا صديقي.. وما الحياة كلها إلا طرفة عين، وستلحق بنا قريبًا بإذن الله لترى وتسمع بنفسك.

هزّ فراس رأسه موافقًا، وأخذ همامُ بيد صديقه ليسيرا معًا بين الأشجار ويسترجعا أطيب الذكريات، وكلاهما يحرص على اغتنام كل لحظة من هذا اللقاء النادر.

لاحظ همام الدهشة في عيني صديقه وإعجابه بجمال المكان، وهو لا يكفّ عن التلفّت في كل الاتجاهات، وهمام يقطف له ثمرة من كل شجرة يمرّان بها ويقدّمها له، فيتعجّب فراس من ألوانها الزاهية وأشكالها التي تشبه أزهارًا منتفخة، مع سائل كالعسل يقطُر من أطرافها، ثم يزداد عجَبًا عندما يشمّ رائحتها وتذوب حلاوتها في فمه بسلاسة.

وبينما كان فراس يمضغ ثمرة طرية بتلذّذ بالغ، سأله صديقه عما حدث في

غزة، وعن أخبار بيت المقدس والمسجد الأقصى، وهل ما زالت فلسطين محتلة؟

توقف فراس عن المسير ليفكّر قليلًا وهو يلعق إصبعيه، ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وقال:

- أبشر بالخير يا صديقي.. الحمد لله...

وقبل أن يكمل فراس حديثه، بدأ همام بالانسحاب نحو الخلف، والضباب الناعم يلفّه. مدّ فراس يده لهمام كي يتشبث به، لكن همام كان يبتسم لصديقه ابتسامة الوداع. صاح فراس:

- خذني إليك يا صديقي.. خذني إليك...

ردّ همام بثقة وهو يتلاشى وراء الضباب:

- ليس بعدُ يا صديقي.. سأنتظرك بكل شوق.

خرج همام من الباب عائدًا إلى عالمه، وانتبه فراس من غفوته. نهض جالسًا وهو يتلفّت حوله، وأخذ يسبّح الله والبهجة تملأ قلبه، مع موجة من القشعريرة تسري في كل جسده. مسح عينيه ووجهه بيده، وإذ برائحة الفاكهة اللذيذة تفوح من أطراف أصابعه، ولعابه ما زال يسيل لحلاوتها، فلم يتمالك نفسه وخرّ ساجدًا وباكيًا.

حان موعد أذان الفجر بعد دقائق، فاتجه فراس إلى مسجد مجاور سائرًا على قدميه، وأدّى الصلاة مع الجماعة، ثم بقي جالسًا في مكانه يقرأ القرآن حتى طلعت الشمس، فقام وصلى ركعتي الضحى.

خرج فراس من المسجد ليمشي في شوارع وسط لندن من غير هدف، منتهزًا

يوم عطلته الأسبوعية. كان يسير بلا توقف وهو مطرِق الرأس، يتفكّر في ذكرياته وماضيه، وفي حياة من سبقوه إلى الرحيل، وفي طموحه وأحلامه وآماله بمستقبل لا يعلم عنه شيئًا.

وبينما كان يمشي غارقًا في أفكاره، وهو يقطع أزقة «سوهو» و«مايفير» الكلاسيكية، كانت أبواب المقاهي ومخابز الحلويات ومتاجر المثلّجات تُفتح على الجانبين، والروائح الشهيّة تداعب أنوف العابرين والسيّاح، وتذكّرُ فراس بعالمٍ آخر تُجنى فيه من جنبات الطرق طيّباتٌ أشهى بكثير بالمجّان، ولسان حاله يقول:

«يا له من عمر طويل في هذه الدنيا الفانية!».

عاد فراس إلى شقته بعدما أنهكه التعب، وتشاغل ببعض أموره ومهامّه العمليّة. وفي الليل، داهمه الأرق في الفراش، وأخذ يتقلّب من شقّ إلى آخر نحو ساعتين.

اعتدل جالسًا في فراشه، ونظر إلى الساعة فوجدها تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل. أشعل ضوءًا خافتًا، ونهض إلى مكتبه المنزلي، وشغّل حاسوبه المحمول.

قعد على مقعده وهو يتأمل في شاشة الحاسوب، ثم أسند مرفقيه إلى طاولة المكتب، ووضع رأسه بين كفّيه ليستغرق في التفكير مغمض العينين.

استعاد فراس من ذاكرته اللحظة التي جمعته بهمام على مقعد الحديقة، عندما كانا يأكلان المثلّجات في طقس بارد، وهمام يسرد قصة حياته كاملة، ثم علّق فراس حينئذ:

«تبدو قصةً مناسبةً لرواية من العيار الثقيل!.. ما رأيك أن تبيعها؟».

فردّ عليه همام:

«لننتظر النهاية، ونرى إن كانت تستحق».

وعقّب فراس:

«ستكون نهاية طيبة.. بإذن الله».

قطع فراس تسلسل الذكريات، فتح عينيه، وأسند ظهره إلى مقعده، وقال محدثًا نفسه:

«حان الوقت لأحكي قصتك للناس يا صديقي..».

وضع فراس أصابعه على لوحة المفاتيح، وقال:

- باسم الله..

ثم كتب:

الفصل الأول

مع اقتراب قرص الشمس من المغيب في يوم صيفي من ليالي شهر يوليو في عام ٢٠٢٣...

انتهى

رأى همام نفسه يطير على ارتفاع منخفض. كان ينساب ببطء كنسيم هادئ بين أشجار باسقة وزاهية الألوان. يجري من تحته ماء نهرٍ زلال كالبلّور، وفي الأفق شلال عظيم يتساقط من أعالي السماء بنعومة، وماؤه الأبيض يتلألأ في ضوء الشمس قبل أن يصب في النهر، مشكّلًا لوحة حالمة تخلب الألباب

إلى أين حلّق همام في تأملاته الروحيّة؟ ومن كان يلتقي هناك؟

وكيف قاده الفضول إلى اكتشاف عوالم أخرى في المعابد والكهوف والغابات؟

ثم كيف سينقلب مسار الأحداث بعد لقائه بالدكتور فراس؟

إذا كنتَ من عشّاق الغموض والمغامرة والفانتازيا الفلسفية

فهذه الرواية ستأخذك إلى عوالم جديدة.

السبيل